Kur'ân-ı Kerîm'de İkna Edici Tartışma ve Fonetik Üslubu

Amar AL SOAH*
Öğr. Gör., İbn Haldun Üniversitesi
Yabanci Diller Yüksekokulu, Yabancı Diller Programı
amar.alsoah@ihu.edu.tr
https://orcid.org/0000-0003-2806-0526

ÖZ

Bu araştırmada Kur'ân-ı Kerim'in ikna edici tartışma (الحجاج الاقناعي) metodundaki fonetik üslubu tartışılmıştır. En başta "hicac" kelimesinin manasındaki gelişim ele alınmış ve "hicac" kelimesinin Arapça'daki "mütekellim" ve "muhatap" kelimeleri arasındaki benzerlik ve farklılıklarına dikkat çekilmiştir. Bunun yanı sıra "hicac" konusundaki dil araçlarının yalnızca mantıkî ve metamatiksel araçlar bakımından okunmasından ziyade bu araçların farklı dilsel, fonetik, psikolojik ve belağı teknikleri de kapsayacağı vurgulanmıştır. Ayrıca Kur'ân'ın bu "hicac" metodunun, muhatabı etkileme ve ikna etme gayesinden ayrışmadığı; bu ikna ve tesir gayesinin "hicac"ı belagatle irtibatlandıran unsur olduğu üzerinde durulmuştur. Hicac'ın haddi zatında inkarcılara has olmadığı; belli bir "iddia"nın kastedildiği ve muhatabın anlama ve anlamlandırmayla birlikte meseleye dahil olduğu her hitabın bu çerçevede değerlendirilebileceği de tartışılan konular arasındadır.

Bu çalışmada muhataba tesiri bakımından Kur'ân'ın fonetik üslübunun kıymeti, bu üslubun ikna metodu ve delillerin özünü teşkil ettiği ve Kur'ân'ın bu konuda çokça itina gösterdiği üzerinde durulmuştur. Bu husus iki açıdan ele alınmıştır. Birincisi fonetik uyumdur. Nitekim bu Kur'ân'ın ritimsel güzelliğine vesile olan Kur'ân harfleri ve cümleleri arasındaki fonetik terkip güzelliğidir. Bu, ayrıca muhataba olan tesiri, delili kendine ve aklına yaklaştırması noktasında Kur'ân'ın hicac metodunda kullanılan fonetik cezbediciliğe de vesile olmaktadır. İkincisi ise kastedilen manayı tasvir eden harflerin ve mana için en uygun lafzın seçilmesi aracılığıyla gerçekleşen ses-mana uyumudur.

Anahtar kelimeler: *Tartışma, Fonetik,* Kur'ân*, Dil, Belagat, Hicac, Lafız*

Convincing Discussion and It's Phonetic Style in The Holy Qur'an

ABSTRACT

The concept of an argument has changed today and has become a huge part of rhetoric argument. A new style that focuses on rhetorical style and convincing has appeared. As a result, arguments have been more comprehensive. This caused its convincing techniques to be examined by different subjects such as philosophy, psychology and social science.

The lack of Argumentative research that has discussed the different styles of persuasion aside from Mathematical logical arguments, has been a motivation for conducting this research. The research is an effort to affect rhetorical arguments. Furthermore, the importance of this topic should be highlighted for all Muslims as it is based on the Qura'an's argument.

The research examines the vocal style of the Arguments in the Quraan specifically. It studies its content in terms of its vocal adequacy and terms of the suitability of the sounds with the meaning.

Keywords: *Discussion, Phonetics, Quran, Language, Rhetoric, Hijac, Phrasing*

* Makale Geliş Tarihi / Received: 10.12.2021
Makale Kabul Tarihi / Accepted: 01.02.2022

الحِجاج بلاغيًا والأسلوب الصوتي في القرآن الكريم

خلاصة البحث:

ناقشتُ في هذا البحث الأسلوب الصوتي للحجاج الإقناعيّ في النص القرآني، وبيّنت في التمهيد تطوّر معنى الحجاج وأنه فعل تواصلي بين المتكلم والمخاطب، وأن أدواته لا تدرس من جانب الأدوات المنطقية الرياضية فقط، بل تتسع أدواته إلى تقنيات بلاغية مختلفة نفسية وصوتية ولغوية، وأن الحجاج القرآني لا ينفصل عن غايته التأثيرية الإقناعية، وأن غاية التأثير والإقناع هو ما يربطه بالبلاغة، وأن الحجاج القرآني لا يختصّ بالجاحدين والمنكرين، بل هو يتّسع لكل خطاب يراد منه دعوى مخصوصة يشارك المخاطب في فهمها وتوجيهها.

فتحدّثت عن قيمة الأسلوب الصوتي القرآني في التأثير على المخاطب وأنه يعدّ من بذور الأدلة والإقناع، وأن القرآن قد اعتنى به كثيرًا، ودرست في ذلك جانبين: جانب التلاؤم الصوتي وهو حسن التأليف الصوتي بين حروف القرآن وجمله وهو ما يسبّب الجمال التوقيعي فيه، ويسبّب أيضًا الاستهواء الصوتي الذي يستخدمه الحجاج في التأثير بالمتلقي وفي تقريب الحجة من نفسه وعقله، والجانب الثاني هو جانب تناسب الأصوات مع المعاني من خلال اختيار اللفظ الأوفق للمعنى واختيار حروف تصوّر المعنى المراد بشكل يجعل من مهمة الحجاج في الإقناع أسهل ويفتح الطريق له في تثبيت المعاني في ذهن المخاطَب.

وقد كان البحث في عمومه محاولة لتقديم صورة مختلفة عن الحِجاج القرآني، ومحاولة لتقديم قراءة جديدة لأساليب البلاغة الإقناعية الموجودة في التراث، وفكرة البحث عمومًا تصبّ في إرادة الخروج من الفكرة السائدة في كون البلاغة جمالية فقط، إلى فكرة أدقّ بنظري وهي أنّ البلاغة أيضًا طريقة في التفكير وأداة في المحاججة وتقنية للإقناع وليست فقط أداة قول جميل.

كلمات مفتاحية: حجاج، القرآن، بلاغة، إقناع، صوت، تقنية، تلاؤم، أدلة، تواصلي، جمالية، متكلم، مخاطب

مقدمة البحث:

إن موضوع الحجاج موضوع أخذ من تفكير البلاغيين وعلماء المنطق كثيرًا، وأخذ مسميات مختلفة وأساليب متعددة قديمًا وحديثًا في معالجته، ولعلّ ربطه بالقرآن الكريم من أهم ما يسهم في توضيح معناه ومقاصده.

تم تناول الحجاج سابقًا في البلاغة على أنه المذهب الكلامي، وتم التعامل معه على أنه حجج عقلية ومنطقية فقط، لكن الحجاج اليوم في الدراسات الحديثة أخذ أبعادًا وأشكالًا أوسع، وهذه الأشكال والطرائق الأوسع لا تتعارض مع القرآن الكريم وأسلوبه وبيانه، بل لعلها توضح جانبًا من قدرته العالية على الحجاج، وهذا ما يهدف البحث لمعالجته عمومًا، فالحجة القرآنية حجة واسعة تسعى العلوم قديمًا وحديثًا لفهمها وتبيان ملامحها، وهذا البحث هو محاولة لقراءة الحجاج البلاغي ثم القرآني قراءة أوسع تحمل شيئًا من الجدّة والربط بين الدراسات القديمة والحديثة والقرآنية لمعنى الحجاج، ولعل هذه القضية البحثية أو هذه الإشكالية البلاغية من الإشكاليات التي لم تأخذ حقها من الدراسات العربية والإسلامية، والاعتناء بها يثري المكتبة العربية عمومًا والمكتبة البلاغية والشرعية خصوصًا.

ينقسم البحث إلى مطالب ثلاثة، يداخلها تقسيمات فرعية:

المطلب الأول: معنى الحجاج في البلاغة العربية

من المعاني الدقيقة التي قامَتْ عليها البلاغة العربية معنيان رئيسان: الحجاج والتواصل، وقد أخذ كلٌّ من هذين المعنيين بُعْدًا غائيًا في الصنعة البلاغية، وهدفًا ثابتًا إلى حدٍ ما؛ يدور حولهما البلاغيون في تعريف البلاغة؛ قال ابن الأثير:" مدارُ البلاغة كلّها على استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم؛ لأنه لا انتفاع بإيراد الألفاظ المليحة الرائقة ولا المعاني اللطيفة الدقيقة دون أن تكون مستجلِبة لبلوغ غرض المخاطِب بها"[1]. وقال الجاحظ: "مدارُ الأمر على البيان والتبيُّن والإفهام والتفهُّم، وكلما كان اللسانُ

[1] – ابن الأثير، ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ت: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، ط1، 1960،ج2: ص260.

أبينَ كان أحمدَ، كما أنه كلما كان القلبُ أشدّ استبانة كان أحمدَ، والمفهِم لك والمتفهّم عنك شريكان في الفضل إلا أنّ المفهِمَ أفضلُ من المتفهّم"[2].

هذان القولان المهمّان يضعان البلاغة في سياقها الحجاجيّ التواصليّ بشكلٍ واضح، فاستدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم –كما قال ابن الأثير– هو سياق البلاغة الحجاجيّة، والتي لا قيمة فيها للألفاظ والمعاني إنْ لم يجلبا غرضَ المتكلم في تسليم خصمه له، ثمّ إنّ إشراكَ المتكلم للسامع أو للقارئ في فضل الفهم –كما قال الجاحظ– هو سياق البلاغة التواصليّة، والتي فيها إعلاءٌ ظاهرٌ من قيمة الإبانة والاستبانة، واشتراكهما معًا في صناعة البلاغة المحمودة، بعيدًا عن انفراد المتكلم بالحظوة البلاغيّة.

وإذا استنطقنا كلامَ ابن الأثير والجاحظ أكثرَ من ذلك لقلنا إنّ الحجاجَ والتواصلَ موجودان في كلّ بابٍ من أبواب البلاغة هدفًا أو غاية، ومباحث البلاغة كلها داخلة في الحجاج والتواصل، لكنّ إفرادَ الحجاج في بابٍ واحدٍ وجعْلَه فرعًا من فروع علم البيان أو المعاني أفقدَه الاهتمامَ في أبواب البلاغة الأخرى وارتباطَه بها.

إنّ العلاقة بين الحجاج والبيان البليغ علاقة تواصليّة قائمة بين المتكلّم والمخاطَب، بغية تحقيق غايات عمليّة سلوكيّة، واختيارُ اللفظ الحسن وتزيينُ المعنى به سبيلٌ من السُبُل لتحقيق هذه الغاية، فتقرير الحجّة وحسن الإفهام سبيلهما البيان العالي المكوّن من لفظ ومعنى، وفي هذا المعنى ينقل الجاحظ كلامًا واضحًا لعمرو بن عبيد يقول فيه: "إنكَ إنْ أوتيتَ تقريرَ حجّة الله في عقول المكلّفين، وتخفيف المؤونة على المستمعين، وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين بالألفاظ المستحسنة في الآذان، المقبولة عند الأذهان رغبة في سرعة استجابتهم، ونفي الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة كنتَ قد أوتيتَ فصلَ الخطاب"[3].

درسَ البلاغيّون القدماء الحجاجَ تحت أسماء مختلفة منها "المذهب الكلاميّ" عند ابن المعتزّ وغيره، و"الاحتجاج النظريّ" عند ابن النقيب، و"الاستدراج" عند ابن الأثير، و"الاستدلال" عند السكّاكيّ، و"الاستشهاد والاحتجاج" عند العسكريّ، و"إلجام الخصم بالحجة" عند الزركشيّ، و"الجدل والمجادلة" عند ابن وهب، وكانت الصفة البارزة في تأصيل مفهومه عندهم أنّ الحجاج حجاج عقليّ منطقيّ،

[2] – الجاحظ، عمروبن بحر، البيان والتبيين، ت: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، ط2، ج1: ص11 .
[3] – المصدر نفسه: ج1 : ص114.

وأدواته هي أدوات علم الكلام، وهذا لا يعني غياب أنواع أخرى من الحجاج كالحجاج الخطابيّ كما سنرى، لكنّ الحجاج العقليّ كان هو الغالب على المفهوم بأدوات واضحة، وغيرُه ذُكِرَ غاية فقط أو بأدوات ضمنية.

ولعلّنا من خلال بعض التعريفات التي ذكرها البلاغيون القدماء لمفهوم الحجاج –الذي أخذ أسماء أخرى– ذكرتها سابقًا نستنبط أهمّ السّمات التي حملها هذا المفهومُ:

1– قيامُ الحجاج على ادّعاءٍ معيّن في ذهن المتكلم، أي إنّه يحمل قضية معيّنة؛ سواء أكانت مسلّمة قطعيّة أم احتماليّة، قال القزوينيّ: "ومنه المذهب الكلاميّ، وهو أنْ يورِدَ المتكلمُ حجّة لما يدّعيه على طريق أهل الكلام"[4].

2– لعلّ تأثرَ الحجاج البلاغيّ بمنهج علم الكلام كان من أسبابه اشتراكهما بالغاية، فكلاهما يريد إلزام المخاطَب بادّعاء ما، لذلك اعتمد الحجاج على الطرق الاستدلالية الكلاميّة، قال ابن حجّة:"وهو في الاصطلاح أنْ يأتي البليغ على صحة دعواه وإبطال دعوى خصمه بحجة قاطعة عقلية تصحّ نسبتها إلى علم الكلام، إذ علم الكلام عبارة عن إثبات أصول الدين بالبراهين العقلية القاطعة "[5].

3– اعتماد الحجاج غالبًا عند البلاغيين على المعقول فقط، وهذا يعني أنّ الخطاب الحجاجيّ بعيدٌ عن العاطفة وتحريض المشاعر؛ لأنّ طريقة أهل الكلام تقوم على الاستدلال العقلي المنطقيّ فقط، قال ابن النقيب في تعريف الحجاج وقد سمّاه "الاحتجاج النظريّ في القرآن": "وبعضُ أهل الشأن يسمّيه المذهبَ الكلاميّ وهو أنْ يذكر المتكلمُ معنًى يستدلّ عليه بضرب من المعقول"[6]، وهذا الاستدلال العقليّ ذكر

---

[4] – القزويني، الخطيب محمد عبد الرحمن، الإيضاح في علوم البلاغة، ت:عبد المنعم الخفاجي، دار الكتاب المصريّ، القاهرة، ج1: ص531–532.

[5] – ابن حجة، تقيّ الدين أبو بكر الحمويّ، خزانة الأدب وغاية الأرب، ت: عصام شعيتو، مكتبة الهلال، بيروت، 2004م، ج1: ص364.

[6] – ابن النقيب، أبو عبد الله جمال الدين البلخيّ المقدسيّ، مقدّمة تفسير ابن النقيب في علم البيان والمعاني والبديع، والمطبوع خطأ باسم الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن لابن قيّم الجوزية، ت:زكريّا سعيد عليّ، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص285.

ابن أبي الأصبع أداته الكلامية المستعملة غالبًا، فقال: "ومنه نوعٌ منطقيّ تستنتج فيه النتائج الصحيحة من المقدّمات الصادقة "[7].

4- الخطاب الحجاجي موجّه عادة إلى خصم يراد إفحامه أو إقناعه، لذلك سمّاه الزركشيّ "إلجام الخصم بالحجّة" وعرّفه بقوله: "هو الاحتجاج على المعنى المقصود بحجة عقلية تقطع المعاند فيه "[8]. وهذا التعريف يقترب جدًا بالحجاج من كونه مرادفًا للجدل والمخاصمة بالمعنى اللغويّ،[9] ويبتعد كثيرًا بالحجاج عن كونه مرادفًا للحوار أو للمناقشة أو لأيّ خطاب عاديّ تحدث فيه منازعة بالرأي، كما سنلحظه في التطوّر الدلاليّ لمعنى الحجاج عند الغربيين.

إنّ الصورة النمطية التي أخذها الحجاج قديمًا في كونه حجاجًا جدليًا أو حجاجًا خطابيًا جعل من الحجاج ثنائية أقرب إلى التضادّ، فما كان حجاجًا عقليًا ابتعدَ عن العاطفة، وما كان حجاجًا عاطفيًا فهو أقرب إلى المغالطة والمناورة دون أسس عقلية.

المطلب الثاني: الحجاج في الدراسات الغربية

اتّخذ الحجاج سبيلًا ثالثًا عند الغربيين في العصر الحديث مع صدور كتاب "بيرلمان وتيتكاه "مصنف في الحجاج الخطابة الجديدة" عام 1958م، فقد خرج المؤلفان من ثنائية الحجاج العقليّ والخطابيّ؛ إلى تعريف الحجاج تعريفًا يجمع بين قوتي العقل والعاطفة بشكل تفاعليّ لا انعزاليّ، فالعقل في خدمة العاطفة والجدل في خدمة الخطابة، التي ستؤدي بدورها إلى العمل السلوكيّ المطلوب، لذلك كان اسم كتابيهما "الخطابة الجديدة"، يقولان فيما نقله عنهما عبد الله صولة في كتابه "الحجاج في القرآن" عن مفهوم الحجاج: "موضوع نظرية الحجاج هو درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أنْ تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو تزيد في درجة ذلك التسليم"[10].

---

[7] – ابن أبي الأصبع، عبد العظيم بن عبد الواحد، بديع القرآن، ت: أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، الدار العربية للموسوعات، ص63.

[8] – الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ط2، ج3: ص468.

[9] – قال ابن منظور: "التحاجّ: التخاصم " مادّة حجج، "والجدل اللدد في الخصومة و القدرة عليها" مادّة جدل.

[10] – عبد الله صولة، الحجاج في القرآن، جامعة منوبة، تونس، 2001م، ج1: ص30-31.

ممّا يميّز رأيَ بيرلمان وتيتكاه أنّ غاية الحجاج عندهما في الخضوع والإذعان تؤدي إلى العمل السلوكيّ، وهذه هي الغاية التواصليّة بين المتكلم والمخاطب، التي نراها تغيب كثيرًا عن الدّرْس الحجاجي، بل قد يغيب الجمهور كله ليصبح الحجاج أدلة وبراهينَ مجرّدة، يقولان في الغاية من الحجاج: "غاية كل حجاج أن يجعل العقول تذعن لما يطرح عليها من آراء أو أن تزيد في درجة ذلك الإذعان. فأنجع الحجاج ما وفق في جعل حدّة الإذعان تقوى درجتها لدى السامعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب (إنجازه أو الإمساك عنه) أو هو ما وفق على الأقلّ في جَعْلِ السامعين مهيئين للقيام بذلك العمل في اللحظة المناسبة"[11].

إذا كانت البلاغة قبل بيرلمان وتيتكاه متّهمة بأنها تعارض الحجاج العقلاني ومتهمة بالتحريض الوجداني وإثارة انفعالات المخاطب وتضليله؛ فإنها مع بيرلمان وتيتكاه أصبحت من بنية الحجاج؛ وحالة خاصة من حالاته، فالسخرية مثلًا حجة في حدّ ذاتها، والانفعال والضحك الذي تثيره البلاغة يسهمان في القوة الإقناعية للحجاج وإنْ كانا يجعلانه في وضع مريب[12].

حصرَ بيرلمان وتيتكاه أشكال الحجاج في طريقتين هما: طريقة الوصل وطريقة الفصل. والمقصود بطريقة الوصل ما يقرّب بين العناصر المتباينة في أصل وجودها وقيام ضرب من التضامن بينها وإبرازها في بنية واحدة واضحة، والمقصود بطريقة الفصل فهي التي تقوم على الفصل بين عناصر تقتضي في الأصل وجود وحدة بينها، و فصل بينها لأسباب دعا إليها الحجاج، ويقوم الحجاج بفصل هذه العناصر على مبدأ الظاهر والحقيقة، ويمثل الظاهر الحدّ الأول والحقيقة الحدّ الثاني، مثال ذلك أن يقال عن شخص غير ذي مروءة: ليس هذا الإنسان بإنسان. فالحقيقة تمثلها ما ركّزه في عقلنا الدين والخلق والمجتمع عن صورة الإنسان المثلى[13].

ثم أخذ الحجاج بُعدًا لسانيًا واضحًا عند "ديكرو"؛ فالحجاج عنده كامن في اللغة فقط، وفي بنيتها، لا في ما يمكن أن ينطوي عليه الخطاب من شبه منطقية أو رياضية كما عند بيرلمان وتيتكاه، و"يكون

---

[11] – المصدر نفسه: ص31.

[12] – أوليفي روبول، هل يمكن أن يوجد حجاج غير بلاغي؟، ت: محمد العمري، مجلة علامات، المغرب، ج6، 22 شعبان 1417هـ، ديسمبر 1996م.

[13] – الحجاج في القرآن: ص35–36.

بتقديم المتكلم قولًا (ق1) أو مجموعة أقوال، يفضي إلى التسليم بقول (ق2) أو مجموعة أقوال أخرى، و(ق1) حجة ينبغي أن تؤدي إلى ظهور (ق2) بشكل صريح أو مفهوم من بنية الأقوال اللغوية حصرًا، لا من مضمون الأقوال الإخبارية ، فالحجاج عند ديكرو واقع في نطاق اللغة فقط، وهو فعل لغوي لا خطابي، ولا صلة له بما هو خارج البنية اللغوية[14].

وتعمّق مستوى الحجاج أكثر مع فهم "جاك ماير" له، الذي جعل الحجاج مسرحًا للحوار بين المتكلم والمخاطب، فالحجاج عنده يقوم على "دراسة العلاقة القائمة بين ظاهر الكلام وضمنيّه"، فالنصف المصرّح به للمتكلّم، والنصف الضمنيّ للسامع، والحجة عنده هي جواب عن سؤال مقدّر يستنتجه المتلقي ضمنيًا من ذلك الجواب، وغالبًا يكون السؤال مشكلة تتطلب حلًا، فمبنى الحجاج عند ماير هو إثارة الأسئلة التي يكشفها المتلقي بمساعدة المقام أو السياق[15].

إنّ الحواريّة التي أقامها "جاك ماير" تتخلّص من هيمنة المعنى على المخاطَبين، وتخرج من قدرة البلاغة على تمرير الحجة الأضعف على السامع، ليصبح الحجاج الحقيقيّ اشتراكًا بين المتكلم والمخاطب في البحث عن الحقيقة، فالبلاغة والحجاج مشروعان متمايزان برأي ماير، البلاغة تريد الهيمنة ! والحجاج يريد الاشتراك في الكشف[16] .

بجعْلِ الحجاج مسرحًا للحوار بين المتكلم والمخاطَب كما هي الحال عند ماير؛ أو بجعل الحجاج والبلاغة على اتصال كامل كما عند بيرلمان وتيتكاه؛ فإن الحجاج بذلك يفلت أكثر فأكثر في إعداد الحجج واستقبالها من التأثيرات التقليدية للمنطق والبلاغة، ليُستخدم أداة من أدوات التواصل، فالإقناع والاقتناع باتَا وثيقي الصلة بثقافتنا وتاريخنا وكفاءتنا المعرفية، بطريقة تفكيرنا المنطقية، وبخاصيتنا الانفعالية من عواطف وأحاسيس، بهذا المعنى يصبح الحجاج ممارسة منطقية ونفسية، و"شأنًا من شؤون التواصل يدبّره

[14] – المصدر نفسه: ص36- 37.

[15] – المصدر نفسه: ص40-41.

[16] – أوليفي أوليفي روبول، هل يمكن أن يوجد حجاج غير بلاغي؟، ت: محمد العمري، مجلة علامات، المغرب، ج6، 22 شعبان 1417هـ، ديسمبر 1996م.

بالأحرى علماء النفس أكثر مما يدبّره المناطقة"[17]، ويبتعد عن حقل الفلسفة إلى ميادين أوسع كعلم النفس والاجتماع.

المطلب الثالث: الحجاج في القرآن الكريم

إنّ التقاء غاية الحجاج مع غاية البلاغة في التأثير والإقناع قد وسّع من تقنيات الحجاج وآلياته ليدخل فيه كلّ ما يؤثر على المتلقي ويعينه على فهم الحجّة وعلى التأثر بها، ومن هذه التقنيات الأسلوب الصوتي الذي يصبّ في غاية الإقناع والتأثير بشكل واضح، من خلال مسألتين رئيستين سأعرض لهما في هذا الفصل هما: التلاؤم الصوتي وتناسب المعاني مع الأصوات، فكلاهما يعينان المخاطب على فهم الحجة القرآنية وكلاهما يقودانه إلى التأثر بها.

وإدراكَ الحجّة القرآنية وبلوغ أثرها للإنسان، قائمٌ على وسائل الإدراك التي أودَعها الخالق فينا؛ والحواسّ الخمس هي الوسائل الإدراكية لكلّ كائن حيّ بصفة عامّة، وللإنسان بصفة خاصّة، والعقل البشريّ يتفاعل مع هذه الحواسّ ويتأثر بها وخصوصًا السمع والبصر؛ لذلك كان تعطيل هذه الحواسّ حاجبًا عن بلوغ الحجّة القرآنية للإنسان، وهذا ما ذمّه الله تعالى في الذين استحقوا النار من الجنّ والإنس لأنهم عطّلوا أدوات إدراكهم؛ قال تعالى: "**ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس ۖ لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ۚ أولئك كالأنعام بل هم أضل ۚ أولئك هم الغافلون**" [الأعراف 179]، فهم وإن كانوا يسمعون أو يبصرون لكنّهم في حقيقتهم غافلون عن حقيقتي السمع والبصر ومعطّلون لهما؛ فشابهوا بذلك الأصمّ والأعمى، قال تعالى: "**ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون * ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون**"[يونس 42-43].

وقد أفرد القرآن الذكر في خطورة تعطيل حاسّة السمع في كثير من مواضعه التي ذمّ بها الكفار والمشركين؛ كقوله تعالى: "**وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون**"[فصلت 26]، وقوله تعالى في أصحاب النار: "**تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون * ألم تكن آياتي تتلى عليكم**"[المؤمنون 104-105]، ولا شكّ أنّ هذا الإفراد بذكر السماع والتلاوة إنما جاء لأنّ الحجاج

[17] – ليونيل بلينجر، الآليات الحجاجية للتواصل، ت:عبد الرفيق بوركي، مجلة علامات، المغرب، عدد 21، 2004م.

القرآني قد اعتنى في سبيل تأثيره على المتلقي بالأسلوب الصوتيّ أو بالأداة الصوتيّة، وسخرهما بشكل لافتٍ للوصول بالمتأثر إلى درجة الإقناع، وتعطيل حاسّة السمع هو تعطيل لهذا الأسلوب الصوتيّ، وبالتالي تعطيل لجزء من الحجاج القرآني.

وفي هذا المطلب سأحاول الوقوف عند أبرز النواحي الصوتية التي سخّرها الحجاج القرآنيّ في بناء حجّته، وسأدرس ذلك تحت ثلاثة عناوين:

1- قيمة الأسلوب الصوتيّ

2- محتوى الأسلوب الصوتي

3- ربط الأسلوب الصوتيّ بالحجاج القرآني

أولًا: قيمة الأسلوب الصوتي:

للأداة الشفهية قيمة ومكانة عند العرب وعند اليونان، وعند البلاغيين عمومًا، والقرآن الكريم قد ساير هذه القيمة واستخدمها أيضًا بشكل لافت في بناء حجته والتأثير في متلقيه، ولذلك فإن من المهم دراسة هذه القيمة الصوتية عند العرب والبلاغيين وبيان أهميتها في الحجاج القرآني، وذلك تحت ثلاثة عناوين:

1- قيمة الأداة الصوتية عند العرب وعند اليونان

2- قيمة الأداة الصوتية عند البلاغيين العرب

3- توظيف الأداة الصوتية في الحجاج القرآنيّ

1- قيمة الأداة الصوتية عند العرب وعند اليونان:

يوصَف الشعر العربيّ قديمًا بأنه شعر غنائيّ؛ لأنه يعتمد على الإلقاء والمهارة الصوتية ويعتمد على تغنّي الرّاوي به، ولذلك سمّي الأعشى بصنّاجة العرب؛ لأنه قد قيل فيه إنك تجد لشعره صوتًا في أذنك بعد تمامه، والعرب تعرف غناء الشعر وتعدّه مضمارًا تجري فيه القصائد، وكما يقولون إنّ الغناء لهذا الشعر مضمار.

ولعلّ من أسباب اعتماد العرب على الرواية الشفهية في نقل الشعر وتقديمها على الكتابة التي عرفوها أو عرفها قلة منهم؛ أنّ الشعر يصاحبه انفعالات ومؤثّرات قد يفقدها النصّ إذا تحوّل من الحالة الصوتية

إلى الحالة المكتوبة، بل قد يتضاءل تأثير النصّ في القارئ إذا خسر لحظة الإلقاء، لذلك نجد أننا نعوّض هذه المؤثرات والانفعالات بالتنقيط المرسوم أي علامات الترقيم ليدل على معنى الاستفهام والتعجب وغيرهما، فالوصول إلى أثر حقيقي في النفس للنداء والاستفهام والتعجب والأمر والنهي لا يكتمل دون الصوت والإلقاء، فلو أخذنا قول عمرو بن كلثوم مثلًا:

أبا هندٍ فلا تعجل علينا وأنظرنا نخبّرك اليقينا [18]

لوجدنا هذا البيت يضمّ أسلوب النداء وأسلوب النهي وأسلوب الأمر، ولاشكّ أنّ أداء الشاعر أو الراوي أداء صوتيًا لهذا البيت هو الذي يحدث الانفعال عند المتلقي بشكل عالٍ ويؤثر فيه ويسهم في إيصال المعنى المطلوب إليه.

ولم تكن الرواية الشفهية عند العرب فقط ذات قيمة؛ فقد اعتنى بها من قبل اليونان في نقل ملاحمهم وأشعارهم، وكانوا يرون في الراوي شخصًا يمارس أعظم تأثير في الجمهور؛ لأنه يحرّك انفعالاتهم ويوصل إليهم الشعر في قالب حركيّ، وهذا ما نراه في محاورة أفلاطون مع أيون الذي كان راوية من الرواة المؤثرين لأشعار اليونان وملاحمهم، وأنقل طرفًا منها:

"سقراط: وددت لو تجيبني بصراحة عمّا سأسألك فيه: عندما تمارس أعظم تأثير على الجمهور لدى تلاوتك لفقرة مثيرة من مثل ظهور أوديسيوس طافرًا يتبينه مقاضوه ويصوّبون السهام إلى قدمه، أو وصف أخيل وهو يندفع إلى هكتور، أو أحزان أندروماخ أو هيكوبا أو بريام، هل تكون في رشدك وصوابك؟ ألا تكون خارجًا عن طورك وكأن روحك في وجدٍ تجوس بين الشخصيات والأماكن التي تتحدث عنها سواء كانت في إيثاكا أو في طروادة أو حيثما كان المنظر الذي تعرضه القصيدة؟

أيون: إن هذا الدليل ليمسّ شغاف قلبي يا سقراط، فلا بدّ أن أعرف صراحة أنّ عيني في رواية المأساة تغرورقان بالدموع، وأنني حين أعرض للرعب ينتصب شعري انتصابًا ويخفق قلبي.

سقراط: أوَ تدري أنك تمارس تأثيرًا شبيهًا بذلك على معظم المتفرّجين؟

[18] – ديوان عمرو بن كلثوم، ت: إميل يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1991م، ص71.

أيون: كل الدراية، فأنا أرمقهم من فوق المنصّة وأشاهد مختلف انفعالات الشفقة والتعجّب والصرامة مرتسمة على محيّاهم عندما أتحدث، وإنّ عليّ أنْ أولّيهم كل انتباهي؛ ذلك لأني إذا جعلتهم يبكون فأنا نفسي سوف أضحك في النهاية، وإذا جعلتهم يضحكون فسوف أبكي، عندما يحين وقت المكافأة"[19].

وقد ذهب أفلاطون أكثر من ذلك حين جعل الكتابة آفة من الآفات التي تخل بالذاكرة، وعدّها طارئة وغريبة على النفس وليست من داخلها، فكأنها بالنسبة لأفاطون وسيلة جامدة تميت النفس، أما الآلة الشفهية فهي التي تعيد الحيوية والنشاط للنفس لأنها صادرة عنها من ذاتها، يقول في محاورة فايدروس "هذا الاختراع سينتهي بمن سيعلمونه إلى ضعف التذكر؛ لأنه سيتوقفون عن تمرين ذاكرتهم حين يعتمدون على المكتوب، وبفضل ما يأتيهم من انطباعات خارجية غريبة عن أنفسهم، وليس بما بباطن أنفسهم"[20].

واللغة المكتوبة بالنسبة لأفلاطون ضعيفة وعاجزة عن التعبير، لأنها تشبه التصوير تبدو حيّة ولكنها صامتة ميتة يقول: " وللكتابة يا فايدروس تلك الصفة العجيبة التي توجد أيضا في التصوير، وذلك لأنّ الصور المرسومة تبدو كما لو كانت كائنات حيّة، ولكنها تظلّ صامتة لو أننا وجهنا إليها سؤالًا، وكذلك الحال في الكلام المكتوب، إنك لتظنّه يكاد ينطق كأنما يسري فيه الفكر، ولكنك إذا ما استجوبته بقصد استيضاح أمر ما فإنه يكتفي بترديد نفس الشيء"[21].

بعد هذا من الممكن أن نقول إن الأدب عمومًا يستمدّ ديناميّته وقوّته التعبيرية من قوة الكلمة المنطوقة التي تعرض شفهيًا أو تتلى تلاوة على المستمعين، وإذا كانت الكتابة تصويرًا فوتوغرافيًا جامدًا كما رأى أفلاطون؛ فإن القراءة الشفهية أو الجهرية عملٌ إبداعيّ حيّ وإيجابيّ وليس عملًا فوتوغرافيًا ميتًا أو سلبيًا، فهي من خلال التلاعب بطبقات الصوت والتنغيم والتجويد تجعل في الكلام حركة وأثرًا، بل قد تعيد إنتاجه مرّة ثانية كما يقوم العازف بإعادة إنتاج المقطوعة الموسيقية وتحويل الجمل الموسيقية الجامدة أمامه إلى إحساس ومشاعر عند المتلقين؛ فكذلك الراوي يعيد الحياة للغة المكتوبة بالنبر والتشديد والنغمة وتجويد الحروف، ويخلق تلك المشاعر والأحاسيس.

---

[19]– عادل مصطفى، فهم الفهم مدخل إلى الهرمنيوطيقا، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2007م، ص489 –490.

[20]– أفلاطون، محاورة فايدروس لأفلاطون أو عن الجمال، ت: أميرة حلمي مطر، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، 2000م، ص210.

[21] –المصدر نفسه: ص211.

2- قيمة الأداة الصوتية عند البلاغيين العرب:

للصوت عمومًا جانبٌ بلاغيٌّ لا يخفى في عيون البلاغيين واللغويين القدماء، كالجاحظ وابن جنيّ والجرجانيّ، وقيمته البلاغية أنه الموصل للمعنى والمتمم للحجة في النفس، فالمعنى عندهم حين يدخل النفس إنما يدخل باللفظ الحسن أولًا ثم يدخل بلسان قائل بليغ ثانيًا، وهذا القائل حتى يكون بليغًا عليه أن ينطق المعاني بمخرج سهل تستعذبه النفس، ينقل الجاحظ عن واعظ أدبي قوله: "أنذركم حسن الألفاظ وحلاوة مخارج الحروف، فإن المعنى إذا اكتسى لفظًا حسنًا وأعاره البليغ مخرجًا سهلًا ومنحه المتكلم دلًا متَعشَّقًا، صار في قلبك أحلى، ولصدرك أملى"، ولأهمية هذا القول يعلّق الجاحظ على هذا النصّ "اذكر هذا ولا تنسه ولا تفرّط فيه"[22].

ولو أخذنا علمًا من علوم البلاغة أو فنًا من فنونها وهو فنّ البديع؛ لوجدنا ارتباطه بالصوت والإيقاع ارتباطًا واضحًا، "والإيقاع وإن لم يبرز مصطلحًا متعارفًا ومحدّد المفهوم لدى البلاغيين؛ فإنّ مظاهره وأبحاثه كانت منتشرة في كتاباتهم، وفي تناولهم لمظاهر الجمال في فنّ القول بمختلف أشكاله... فظواهر البديع تمثل في مجملها عناصر إيقاعية، اهتم بها البلاغيون، وحاولوا اكتشاف أنواعها وقوانينها، وعلى الرغم من أنّ الإيقاع في الأصل يعود إلى التناسب الزمانيّ في فنّ الموسيقى بصفة خاصة؛ فإنّ النقاد وسعوا مفهومه ليشمل فنونًا أخرى كالرسم والنحت والفنون القولية، إذ إنها تتوفر جميعًا على تناسب بين وحدات العمل وعناصره"[23].

وكثير من مباحث فنّ البديع لا تخرج عن أن تكون "تناسبًا صوتيًا كالموازنة والتصريع وكلّ ما يلحق بالوزن والقافية من حيث المبدأ، أو تناسبًا دلاليًا صوتيًا كالجناس والطباق وغيرها، فهذه الأنواع تقوم في عمومها على تناسب بين طرفين أو أكثر في النصّ، وهي تحقق هذا التناسب بوصفه مقياسًا جماليًا له أهمية في التأثير الإيجابي على المتلقي وكسب تفاعله وإعجابه، ولهذا ارتبطت تلك المحسنات البديعية عند أكثر البلاغيين بما أسموه المناسبة والملاءمة والترابط والتلاحم وغير ذلك"[24].

---

[22] – البيان والتبيين: ج1، ص254.

[23] – مسعود بودوخة، عناصر الوظيفة الجمالية في البلاغة العربية، عالم الكتب الحديث، الأردن،ط1، 2001م، ص122.

[24]– المصدر نفسه: ص 188– 189.

وإذا كان التقابل والتشابه اللذين تحدثهما أساليب البديع يعدان من التناسبات الصوتية فإن لهما أثرهما الإيقاعي في النفس، وقد تكلم في ذلك حازم القرطاجني بقوله: فإن للنفوس في تقارن المتماثلات وتشافعها، والمتشابهات والمتضادات وما جرى مجراها تحريكاً وإيلاعاً بالانفعال إلى مقتضى الكلام، لأن تناصر الحسن في المستحسنين المتماثلين والمتشابهين أمكن من النفس موقعاً من سنوح ذلك لها في شيء واحد. وكذلك أيضاً مثول الحسن إزاء القبيح أو القبيح إزاء الحسن مما يزيد غبطة بالواحد وتخلّياً عن الآخر لتبين حال الضد بالمثول إزاء ضده. فلذلك كان موقع المعاني المتقابلات من النفس عجيباً"[25].

والعرب تعدّ كل شيء يعين على الإبانة والتأثير من صميم البلاغة والعمل البلاغيّ، وترك الوسيلة المعينة على ذلك إخلال بالبلاغة تكرهه العرب، لذلك كان السجع والجناس والوزن في الخطب والنثر أمرًا مرغوبًا فيه عند البلاغيين لكن دون تكلّف؛ مع أنّ السجع والجناس مؤسَّس على الأصوات والأنغام، لكن لما كانت هذه القيم الصوتية تعطف قلوب الناس كما تعطفها أوزان الشعر وتعين على نقل الخطب بين الناس كما ينقل الشعر؛ رغبت بها العرب، وهذا ما ذكره عبد القاهر الجرجاني بقوله "والخطبُ من شأنها أن يعتمد فيها الأوزان والأسجاع فإنها تروى وتتناقل تناقل الأشعار، ومحلها محل النسيب والتشبيب من الشعر"[26].

والجناس والسجع والوزن قيم صوتية تصير قيمًا بلاغية حين تسهم في تأدية المعنى وإيصال الحجة، بل قد يكون ترك هذه القيم الصوتية تكلفًا؛ كما قد يكون التكلف في إثباتها دون استدعاء المعنى لها ودون حاجته إليها، "ولذلك أنكر الأعرابيّ حين شكا إلى عامل الماء بقوله: "حلأتَ ركابي، وشققتَ ثيابي، وضربتَ صحابي"، فقال له العامل "أوتسجع أيضًا"؛ إنكارَ العامل السجع حتى قال: "فكيف أقول؟" وذاك أنه لم يعلم أصلَحَ لما أراد من هذه الألفاظ، ولم يره بالسجع مخلًا بمعنى، أو محدثًا في الكلام استكراهًا، أو خارجًا إلى تكلف واستعمال لما ليس بمعتاد في غرضه"[27].

والمسألة عند عبد القاهر؛ أن أجراس الحروف لا قيمة لها إذا لم يكن المعنى قد استدعاها، فالمعنى جالب للصوت وللفظ، فإذا أوصل المعنى لوزن أو سجع أوتجنيس فلا تكلف في إيرادهم ، بل تركهم هو التكلف

[25] – منهاج البلغاء: ص44 –45.

[26] – أسرار البلاغة: ص 9.

[27] – المصدر نفسه: ص13.

وفيه إخلال بالمعنى، يقول عبد القاهر "المتكلم لم يقد المعنى نحو التجنيس والسجع، بل قاده المعنى إليهما، وعثر به عليهما، حتى إنه لو رام تركهما إلى خلافهما مما لا تجنيس فيه ولا سجع لدخل من عقوق المعنى وإدخال الوحشة عليه، في شبيه بما ينسب إليه المتكلّف للتجنيس المستكره، والسجع النافر"[28].

وبذلك نعلم أن المزية عند البلاغيين وخصوصًا عند عبد القاهر، ليست في الأداوت الصوتية التي يستخدمها البليغ، لأنها وسائل تجلبها المعاني، فالأدوات الصوتية من وزن وسجع معينة على تمام الحجة وإيصال المعنى؛ لكنّ المزيّة الحقيقية هي للقلب والعقل بتفكرهما وتدبرهما في المعاني التي سمعوها، وذلك حتى لا تصير اللغة أصواتًا فقط مجرّدة من المعاني، يقول عبد القاهر "فإذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعرًا أو يستجيد نثرًا، ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ، فيقول: حلو رشيق، وحسن أنيق، وعذب سائغ وخلوب رائع، فاعلم أنه ليس ينبئك عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف وإلى ظاهر الوضع اللغوي، بل إلى أمر يقع من المرء في فؤاده، وفضل يقتدحه العقل من زناده"[29].

وعبد القاهر إذا ظهر من كلامه تقليل من قيمة أجراس الحروف فهو ليس تقليلًا لأجل التقليل ولكنه وضع للأشياء في مواضعها، وترتيب لعملية البلاغة داخل النفس، وأن المحدث لها هو المعنى، وكثير من أقوال عبد القاهر إنما أتت في سياق الردّ على من ادعى أن البلاغة أولها وآخرها في اللفظ دون المعنى، وفي ذلك يقول الأستاذ محمد أبو موسى معلقًا على قول عبد القاهر"قد فرغنا الآن من الكلام على جنس المزية وأنها من حيّز المعاني دون الألفاظ، وأنها ليست لك حيث تسمع بأذنك بل حيث تنظر بقلبك وتستعين بفكرك وتعمل رويتك وتراجع عقلك، وتستنجد في الجملة فهمك، وبلغ القول في ذلك أقصاه، وانتهى إلى مداه"[30]. يعلّق الأستاذ بقوله: "ليس معناه إهمال رنين البيان ونغمه وأنه لا يدخل في البلاغة، وإنما هو توجيه إلى استكشاف هذا الرنين وهذا النغم، وأن فائدته ليست هي التي تسمعها الآذان، وإنما في مخامرة النفس وإيقاظه شجونها وحنينها، ولا بدّ من مراعاة سياق عبد القاهر، وأنه يدفع

[28] – المصدر نفسه: ص13.

[29] – أسرار البلاغة: ص 4.

[30] – دلائل الإعجاز:ص 64.

القول بأن البلاغة أولها وآخرها راجعة إلى الألفاظ، وكأن الجرس الذي يقع في الأذن لا غير هو وزنها ومعانيها"[31].

ونستطيع أن نستجلي القيمة البلاغية والعملية للأداة الصوتية عند البلاغيين واللغويين من خلال أمثلة كثيرة في النحو والبلاغة وغيرهما، ولكنني سأكتفي بمثالين يوضحان هذه القيمة:

1- الصوت له أثره في النفس، والصوت الموزون والخفيف مؤنسٌ للنفس، لذلك حرصت العرب على الابتعاد عن كل ما ينفر النفس أو يثقلها، ومن ذلك مثلًا الثقل الصوتي، لأنّ الصوت الثقيل يضجر السامع فلا يألفه وينفر منه، لذلك أحبت العرب التخفيف في أكثر كلامها، وفي ذلك يروي ابن جني عن شيخه أبي عليّ عن أبي بكر عن أبي العباس قال سمعت عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير يقرأ "ولا الليل سابقُ النهار" فقلت له ما تريد؟ قال: أردت "سابقٌ النهار" فقلت: فهلّا قلته! فقال لو قلته لكان أوزن . ويعلّق ابن جنيّ على هذا الخبر بقوله: "ففي هذه الحكاية لنا ثلاثة أغراض مستنبطة منها، أحدها تصحيح قولنا إن أصل كذا وكذا، والآخر قولنا إنها فعلت كذا لكذا، ألا تراه طلبَ الخفة، يدلّ عليه قوله: لكان أوزن أي أثقل في النفس وأقوى، من قولهم: هذا درهم وازن، أي ثقيل له وزن، والثالث أنها قد تنطق بالشيء غيرُهُ في أنفسها أقوى منه لإيثارها التخفيف"[32].

2- العرب رغبت بالصوت الموزون والمسجوع في سبيل العمل بمقتضى معنى الصوت، وتمثّله سلوكًا واقعيًا، ومن ذلك مشروعية الأمثال عند العرب، فنجدها تصاغ بأصوات معدودة ومسجوعة لتأنسها النفس ثم لتعمل بها، وهذا ما قال ابن جني في ذلك "ألا ترى أن المثل إذا كان مسجوعًا لذّ لسامعه فحفظه، فإذا هو حفظه كان جديرًا باستعماله، ولو لم يكن مسجوعًا لم تأنس النفس به، ولا أنقت لمستمعه، وإذا كان كذلك لم تحفظه، وإذا لم تحفظه لم تطالب أنفسها باستعمال ما وضع له وجيء به من أجله"[33].

---

[31] – محمد محمد أبو موسى، مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط2، 2010م، ص95.

[32] – الخصائص: ج1، ص 250.

[33] – الخصائص: ج1، ص 217.

3- توظيف الأداة الصوتية في الحجاج القرآنيّ

النصّ الحجاجيّ القرآنيّ يختلف عن غيره من النصوص العلميّة اختلافًا كبيرًا، فهو كتاب هداية "**ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**" [البقرة 2]، "**كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد**"[إبراهيم 1]، وإذا كان القرآن كتاب هداية؛ فهو ليس نشرة معلومات علمية وليس من أهدافه الرئيسة أن يقدّم لنا ذلك، حتى نقرأه قراءة صامتة! وإنْ كانت القراءة الصامتة قد تناسب مقام التدبّر والتفكّر عند المتلقي؛ لكنّ القرآن في أصله حجاج وبلاغ ورسالة وتأثير وتحوّل، لذلك يحتاج إلى قوّة الكلمة الشفيهة لتحقيق هذا المضمون، والقرآن لا يخاطب الملكة العقلية فقط كما تخاطبها الكتب العلمية، ولا يحاجج العقول فقط؛ ولكنه يخاطب ويحاجج الشخصية الإنسانية كلها بما تملكه من عواطف وأفكار؛ وهذا يحتاج إلى الصوت وإلى الحركة وإلى الهزّة، لذلك كان وصف القرآن لنفسه بالبلاغ والرسالة، قال تعالى: "**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**"[المائدة 67]، وقال سبحانه: "**فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ**"[الأحقاف 35].

وثمّة نصوص قرآنية ونبويّة عديدة تستبطن هذا المعنى، وتحثّ المتلقي بإشارات مختلفة على استعمال الأداة الصوتية أو على السماع أو على القراءة الجهرية، وكأنّ القرآن وإن كان نصًّا إلهيًا معجزًا؛ لكنّه قد يفقد أثره إذا فقد سمة الحركة التي يحدثها الصوت، التي جعلها الله صفة ومزية للكون كله، ولأنّ القرآن أولًا وأخيرًا لغة ونصّ لغويّ، والحجاج القرآنيّ حجاج لغويّ، واللغة قد تفقد شيئًا من قوتها التعبيرية حين تحبس في السطر الصامت وتستردّ هذه القوة بحركة الصوت لتصبح لغة لها حدث زمانيّ وواقعيّ في نفس المتلقي.

نجد هذا المعنى في قوله تعالى: "**وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا**"[الفرقان:30]؛ فالآية تتضمن تحذيرًا من درجة عالية، لأنّ التجاء الرسول إلى الله وتوجّهه إليه بالشكوى يدلّ على عظم خطر الفعل وهو الهجر، و "اسم الإشارة في (هذا القرآن) لِتَعظيمه وأنّ مثله لا يُتّخَذ مهجورًا؛ بل هو جدير بالإقبال عليه والانتفاع به، والمهجور: المتروك والمفارَق، والمراد هنا ترك

الاعتناء به وسماعِه" [34]. والمراد بالهجر أيضًا أنهم "هجروا القرآن الذي نزله الله على عبده لينذرهم ويبصرهم، هجروه فلم يفتحوا له أسماعهم إذ كانوا يتقون أن يجتذبهم فلا يملكون لقلوبهم عنه ردًا"[35].

وحرص المشركين على عدم سماع القرآن وإعراضهم عنه حتى لا يتأثروا به نجده أيضًا في قوله تعالى **"وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون"**[فصلت 26]، فهذه "كلمة كان يوصي بها الكبراء من قريش أنفسهم ويغرون بها الجماهير وقد عجزوا عن مغالبة أثر القرآن في أنفسهم وفي نفوس الجماهير"[36]، فهم قد "استولى على قلوبهم الجحد والإنكار، ودام على العداوة فيهم الإصرار فاحتالوا بكل وجه، وتواصوا فيما بينهم بألا يستمعوا لهذا القرآن لأنه يغلب القلوب، ويسلب العقول، وكل من استمع إليه صبا إليه"[37]، لذلك عوّضوا عجزهم عن مقارعة حجته بالتواصي فيما بينهم أن انصرفوا عنه "وتشاغلوا عند قراءته برفع الأصوات بالخرافات والهذيان والزمل وما أشبه ذلك، حتى تخلطوا على القارئ وتشوّشوا عليه وتغلبوه على قراءته"[38]، وهذه الطريقة في حقيقتها "مهاترة لا تليق، ولكنه العجز عن المواجهة بالحجة والمقارعة بالبرهان، ينتهي إلى المهاترة، عند من يستكبر على الإيمان"[39].

ولذلك كان في إقامة الحجة على الكافرين والمعاندين يوم القيامة أنّ الله تعالى يذكّرهم بالتلاوة التي سمعوها في الدنيا من النبي صلى الله عليه وسلم ثم أعرضوا عنها أو تشاغلوا بغيرها، قال تعالى: **"ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون"**[المؤمنون 105]، وقال تعالى **"قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون"**[المؤمنون 66]، قال القشيريّ في تفسيره: "ذكر هذا من باب إملاء

---

[34] – التحرير والتنوير: ج19، ص17.

[35] – سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، ط9، 1980م، ج5، ص 2561.

[36] – في ظلال القرآن: ج5، ص 3120.

[37] – القشيري، أبو القاسم، لطائف الإشارات، ت: إبراهيم بسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط2، 1971، ج3، ص326.

[38] – الزمخشري، جار الله أبو القاسم، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل، ت عادل عبد الموجود وعليّ معوض، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 1998م، ج5، ص380.

[39] – في ظلال القرآن: ج5، ص 3120.

العذر، وإلزام الحجة، والقطع بألا ينفع- الآن- الجزع ولا يسمع العذر، والملوك إذا أبرموا حكمًا، فالاستغاثة غير مؤثّرة في الحاصل منهم"[40].

وفي السيرة قصة عتبة بن ربيعة في تفاوضه مع النبي صلى الله عليه وسلم مشهورة في ذلك، وتدلّ على عظم تأثير السماع في قلوب المشركين:

روي أن الزيّال بن حرملة قال: قال الملأ من قريش وأبو جهل قد التبس علينا أمر محمد ، فلو التمستم رجلا عالما بالشعر والكهانة والسحر فكلمه ثم آتانا ببيان من أمره ، فقال عتبة بن ربيعة: والله لقد سمعت الكهانة والشعر والسحر ، وعلمت من ذلك علما لا يخفى عليّ إن كان كذلك. فقالوا: إيته فحدثه . فأتى النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال له : يا محمد أنت خير أم قصي بن كلاب؟ أنت خير أم هاشم؟ أنت خير أم عبد المطلب ؟ أنت خير أم عبد الله ؟ فبم تشتم آلهتنا ، وتضلل آباءنا ، وتسفه أحلامنا ، وتذم ديننا ؟ فإن كنت إنما تريد الرياسة عقدنا إليك ألويتنا فكنت رئيسنا ما بقيت ، وإن كنت تريد الباءة زوجناك عشر نساء من أي بنات قريش شئت ، وإن كنت تريد المال جمعنا لك ما تستغني به أنت وعقبك من بعدك ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا من الجن قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا في طلب ما تتداوى به أو نغلب فيك؛ والنبي –صلى الله عليه وسلم– ساكت ، فلما فرغ قال : قد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم، قال: اسمع. قال: **"بسم الله الرحمن الرحيم حم. تنزيل من الرحمن الرحيم. كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون"** إلى قوله: **"فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود"**، فوثب عتبة ووضع يده على فم النبي– صلى الله عليه وسلم–، وناشده الله والرحم ليسكتن، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش فجاءه أبو جهل، فقال: أصبوت إلى محمد؟ أم أعجبك طعامه؟ فغضب عتبة وأقسم ألا يكلم محمدا أبدا، ثم قال: والله لقد تعلمون أني من أكثر قريش مالا، ولكني لما قصصت عليه القصة أجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر، ثم تلا عليهم ما سمع منه إلى قوله: مثل صاعقة عاد وثمود وأمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب، فوالله لقد خفت أن ينزل بكم العذاب، يعني الصاعقة. وقد روى هذا الخبر أبو بكر الأنباري في كتاب "الرد" له عن محمد بن كعب القرظي، وأن النبي –صلى الله عليه وسلم– قرأ حم فصلت حتى انتهى إلى السجدة فسجد وعتبة مصغ يستمع، قد اعتمد على يديه من وراء ظهره.

[40] – لطائف الإشارات، ج2، ص 581.

فلما قطع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– القراءة قال له: يا أبا الوليد قد سمعت الذي قرأت عليك فأنت وذاك فانصرف عتبة إلى قريش في ناديها فقالوا: والله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي مضى به من عندكم. ثم قالوا: ما وراءك أبا الوليد؟ قال: والله لقد سمعت كلاما من محمد ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة، فأطيعوني في هذه وأنزلوها بي، خلوا محمدا وشأنه واعتزلوه، فوالله ليكونن لما سمعت من كلامه نبأ، فإن أصابته العرب كفيتموه بأيدي غيركم، وإن كان ملكا أو نبيا كنتم أسعد الناس به؛ لأن ملكه ملككم وشرفه شرفكم. فقالوا: هيهات! سحرك محمد يا أبا الوليد. وقال: هذا رأيي لكم فاصنعوا ما شئتم[41].

وما أسلم عمر بن الخطاب على شدّته وقوّته إلا حين رق للقرآن وسمع آيات تتلى من سورة طه في بيت أخته، والقصة في ذلك مشهورة.

ونجد أن النبيّ صلى الله عليه وسلّم قد اتبع مع أصحابه أسلوب السماع والتلاوة الجهرية ليعزز مكانها في نفوسهم فهي وإن كانت وسيلة نقل القرآن مع أن القرآن كان يكتبه الصحابة، إلا أنها وسيلة لتعزيز معانيه وإيصال أثره إلى النفوس، روي أنّ ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: "اقرأ علي القرآن"، قلت: أأقرأ عليك وعليكَ أنزل؟! قال: "إني أحب أن أسمعه من غيري" فقرأت عليه سورة النساء، حتى بلغت: "**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً**"[النساء 41] قال: "أمسك"، فإذا عيناه تذرفان.[42]

وروي أيضًا أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال لأُبيّ بن كعب: إنّ الله عز وجل أمرني أن أقرأ عليك، قال : آلله سمّاني لك؟ قال: الله سمّاك لي، فَجَعَلَ أُبيّ يبكي[43].

ومن أجل ذلك حثّ الإسلام على تحسين الصوت بالقرآن وأثنى على من ملك صوتًا جميلًا في تلاوة القرآن؛ لأنه بصفاء صوته وحسن تنقله بين الطبقات الصوتية يظهر مزية عظيمة من مزايا القرآن في انسجام أصوات حروفه ومخارجها فيقع القرآن في نفس متلقيه موضع القبول وتعمل الحجة القرآنية عملها

---

[41] – الجامع لأحكام القرآن: ج18، ص390– 391.

[42] – أخرجه البخاريّ من حديث عبد الله بن مسعود، كتاب تفسير القرآن، باب تفسير سورة النساء، برقم: 4306.

[43] – أخرجه البخاريّ من حديث أنس بن مالك، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب أبيّ بن كعب رضي الله عنه، برقم: 3598.

في عقل ووجدان المتلقي، قال الإمام البخاريّ في ترجمة أحد أبواب صحيحه: "باب قول النبي صلى الله عليه وسلم :الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، وزينوا القرآن بأصواتكم"[44].

ثانيًا: محتوى الأسلوب الصوتيّ

لا شكّ أن المحتوى الصوتيّ الذي استخدمه الحجاج القرآنيّ في بيان حجته والتأثير في متلقيه؛ محتوًى واسعٌ وذو جوانب مختلفة، وكتبت في ذلك عدة مصنفات، لكنيّ هنا سأهتم بدراسة جانبين مهمين لهما أثرهما في الحجاج القرآني، ويعبّران بشكل واضح عن هذا المحتوى الصوتي، وهما:

1- التلاؤم والتوقيع في النصّ القرآني 2- تناسب الأصوات مع المعاني في النصّ القرآني

لعلّ أوّل من أشار إلى هذا المعنى الإمام أبو الحسن عليّ بن عيسى الرمانيّ في رسالته "النكت في إعجاز القرآن" حيث جعل إعجاز القرآن من سبع جهات؛ ومنها البلاغة، ثم قسّم البلاغة إلى عشرة أقسام؛ وجعل من هذه الأقسام بابا سمّاه "باب التلاؤم".

وعرّف الرّماني التلاؤم بأنه نقيض التنافر، وبأنه "تعديل الحروف في التأليف"، وتأليف الكلام عند الرماني له ثلاثة أوجه: تأليف متنافر، وتأليف متلائم في الطبقة الوسطى، وتأليف متلائم في الطبقة العليا، ثم قال "والمتلائم في الطبقة العليا القرآن كله، وذلك بيّن لمن تأمله"[45].

والتلاؤم حسب الرّماني يكون في تعديل الحروف، ومخارج الحروف مختلفة من أقصى الحلق إلى الشفتين؛ وتعديل الحروف يكون من غير بعد شديد فيما بينها ولا قرب شديد، وبذلك تكون سهلة على اللسان وحسنة في الأسماع [46].

---

[44] – صحيح البخاري، كتاب التوحيد.

[45] – الرّماني، أبو الحسن، النكت في إعجاز القرآن، ت: محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، ط6، ؟، منشورة ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص 94- 95.

[46] – المصدر نفسه: ص 96.

ويشبّه الرماني التلاؤم والتنافر بالخط الجيد والقبيح، فقراءة الكتاب في أحسن صورة للخط مختلف عن قراءته في أقبح صورة للخط، وإن كانت المعاني واحدة؛ لأن النفس إنما تتقبل المعنى ويحسن وقعه فيها مع حسن السمع وسهولة اللفظ[47].

ويربط الرّماني بين التلاؤم الصوتيّ وبين قيام الحجة القرآنية، فيرى أنّ اجتماع التلاؤم الصوتي مع صحة الحجة والبرهان ومع حسن البيان فإن ذلك أدعى لقبول الحجة لدى صاحب الطباع العارف بالكلام الجيد، يقول "فإذا انضاف إلى ذلك [أي إلى التلاؤم الصوتي] صحة البيان في صحة البرهان في أعلى الطبقات؛ ظهر الإعجاز للجيد الطباع البصير بجواهر الكلام"[48].

وردّ ابن سنان على الرّمانيّ آراءه في التلاؤم الصوتيّ وذهب مذهبًا بعيدًا في أنّ هذا الوجه الصوتيّ يستوي فيه القرآن مع كثير من كلام العرب، ولا حاجة للقرآن بهذه الدعوى ليقوم إعجازه، يقول: "وأمّا قوله : إنّ القرآن من المتلائم في الطبقة العليا، وغيره في الطبقة الوسطى، وهو يعني بذلك جميع كلام العرب، فليس الأمر على ذلك، ولا فرق بين القرآن وبين فصيح الكلام المختار في هذه القضية، ومتى رجع الإنسان إلى نفسه، وكان معه أدنى معرفة بالتأليف المختار، وجد أنّ في كلام العرب ما يضاهي القرآن في تأليفه، ولعلّ أبا الحسن يتخيّل أن الإعجاز في القرآن لا يتم إلا بمثل هذه الدعوى الفاسدة "[49] .

وفي باب آخر من رسالته تحدّث الرّماني عن الفواصل القرآنية وأنها "حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني" وفرّق بينه وبين السجع في كلام العرب؛ وأن الفاصلة تابعة للمعنى، أما السجع فالمعاني تابعة له، فنفى السجع عن القرآن، وعدّ فواصل القرآن في قمّة البلاغة، وأن فواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة، لأنها طريق إلى فهم المعنى في أحسن صورة يدل بها عليها، وأنها على ضربين: أحدهما على الحروف المتجانسة كقوله تعالى "طه *ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى* إلا تذكرة لمن يخشى" والضرب الثاني على الحروف المتقاربة كالميم والنون في قوله تعالى "الرحمن الرحيم *مالك يوم الدين"[50].

---

[47] – النكت في إعجاز القرآن: ص96.

[48] – المصدر نفسه: ص96.

[49] – ابن سنان، أبو محمد الخفاجي، سرّ الفصاحة، ت: داود الشوابكة، دار الفكر، عمان، ط1، 2006م، ص94.

[50] – وردّ ابن سنان أيضًا على الرّماني في قسمته أنّ الفواصل تابعة للمعنى والسجع يتبعه المعنى، وقال هذا غير صحيح، وحرّر أن الفواصل في الحروف المتماثلة والمتقابلة، والسجع لا يكون إلا في الحروف المتماثلة، وكلاهما أي المتماثل والمتقارب

ولا بدّ من مناقشة نجمع فيها بين آراء الرّماني في التلاؤم الصوتي وبين شيء من رأي ابن سنان في ذلك، لأنّ كليهما يحمل صوابًا في رأيه.

معلوم أنّ العرب اعتنت بمخارج الحروف وصفاتها، وأنها نفرت من الكلمات التي تتجافى حروفها تجافيًا مضجرًا للسمع، وأنها خففت في كثير من حركاتها وسكناتها لأجل أن لا تقع في الاستثقال الصوتيّ، حتى غدا كلامها فصيحًا في تلاؤم حروف الكلمة المفردة، وبذلك تصحّ قسمة ابن سنان في أنّ التأليف الصوتي للكلمة المفردة على ضربين فقط: متلائم ومتنافر؛ ولأنّ القرآن كما يرى ابن سنان إنما استخدم كلمات العرب المفردة نفسها.

وهما وإن اختلفا في تلاؤم مخارج الحروف فأراد الرّمانيّ الاعتدال بين مخارج الكلمة فلا يكون البعد الشديد ولا القرب الشديد، وأراد ابن سنان البعد في المخرج وعدّه دليلا على فصاحة الكلمة وشبه ذلك بالألوان، و"أن الحروف التي هي أصوات تجري في السمع مجرى الألوان من البصر، ولا شك أن الألوان المتباينة إذا جمعت كانت في المنظر أحسن من الألوان المتقاربة"[51]، هذا الخلاف وإن وقع فإنّ ابن الأثير قد اختصر ذلك وردّ الأمر إلى أنّ جمال اللفظة يرجع إلى حسن وقعها في السمع سواء أكانت متقاربة المخارج أو متباعدة، إذ هناك كلمات متقاربة في مخارجها ولكنها حسنة الوقع في الآذان، فمن يسأل عن أي لفظة هل هي حسنة أو قبيحة لا يرجع ليرى مخارج حروفها، بل يقول على الفور، "فحسن الألفاظ إذن ليس معلومًا من تباعد المخارج، وإنما علم قبل العلم بتباعدها، وكل ذلك راجع إلى حاسة السمع... واستحسانها واستقباحها إنما هو من قبل اعتبار المخارج لا بعده"[52].

ولا يمكن أن نغفل أن جمال أي لفظة ليس في قرب المخارج أو في بعدها فقط ولكن في صفات الحروف التي تصحبها من جهر وشدة وهمس وصفير واستعلاء واستفال وقلقلة .

وإذا رجعنا للتأليف الصوتي وتلاؤمه فيمكن أن نضيف قسمة أخرى؛ لا من حيث المفردة نفسها مخرجًا وصفة، لكن من حيث النظم كلّه، فائتلاف مخارج حروف الجملة كلها فيما بينها وتناسب أصوات

لا يخلو من أن يكون محمودا إذا خرج طوعًا وتابعا للمعنى أو مذموما إذا كان عكس ذلك، والقرآن في قسميه المتماثل والمتقارب ليس فيه إلا المحمود في أعلى درجات البلاغة. ص166.

[51] – سرّ الفصاحة: ص58.

[52] – المثل السائر: ج1، ص153.

حروفها بشكل طبيعي وسهل لا تكلف فيه؛ وبشكل يترتب فيه الصوت على نسب معلومة لتشكل موسيقى لغوية مطّردة لا نراه إلا في القرآن وفي قليل من كلام العرب.

فالتأليف الصوتي للنظم كله؛ على ثلاثة وجوه: متنافر، ومتلائم في الطبقة الوسطى، ومتلائم في الطبقة العليا.

صحيح أنّ العرب استخدمت أو راعت أو كيّفت الصوت لتجلب اللحن والوزن، لكنّها لم تكيّف مادة الصوت نفسه وهي الحروف، فالعرب كما تحدّث الرافعيّ إنما كان منطقهم أن تجري أصوات الحروف منزلة النبرات الموسيقية كيفما اتفقت، ويكون أمر الموسيقى إلى " الصوت وطريقة تصريفه وتوقيعه، لا إلى أصوات الحروف ووجه تأليفها وتتابعها؛ فيحسن مع أهل الصناعة وإن كانت حروفه غثّة التركيب سمجة المخارج وكانت جافية كزّة"[53].

أمّا القرآن فكان في الطبقة العليا من النظم الموسيقي "لترتيب حروفه باعتبار من أصواتها ومخارجها، ومناسبة بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعية في الهمس والجهر، والشدّة والرخاوة والتفخيم والترقيق، والتفشي والتكرير وغير ذلك"[54].

وهذا التأليف الصوتيّ القرآني –كما يشير دراز– قد خرج في مجموعة مختلفة مؤتلفة، فجمع بين جزالة البادية في الصوت ورقة الحاضرة وسلاستها، وكأنه نقطة التقاء بين القبائل، عليه تأتلف القلوب[55].

هذا الجمال التوقيعي كما يسمّيه دراز لا يخفى على أحد سمع القرآن وخصوصًا العرب، ولعلّ هذه الموسيقى اللغوية المؤتلفة جعلت أقرب أوصاف القرآن إلى أذهان العرب وصفه بالشعر، لأنّهم وجدوا فيه هزّة لا يجدونها إلا في الشعر، على أنّ القرآن نثر لا يقوم على أوزان الشعر عندهم، وإنما وصفوه بذلك لما وجدوه فيه من الاتساق والائتلاف الذي تجريه أجراس حروف القرآن بحركاتها وسكناتها و مدّاتها وغنّاتها واتصالاتها وسكناتها، وفي الحقيقة هم وجدوه لحنًا عجيبًا غريبًا عنهم فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا

[53] – إعجاز القرآن: ص155.

[54] – إعجاز القرآن: ص152.

[55] – النبأ العظيم: 104.

ما هو بشعر؛ كما قال الوليد "فوالله ما فيكم رجل أعلم مني بالشعر لا برجزه ولا بقصيده، ولا بأشعار الجنّ، والله ما يشبه الذي يقوله شيئًا من هذا"[56].

ولعلّ أبين دليل على هذا اللحن القرآني الفريد –كما تحدّث الرافعي– أن نذهب إلى قطعة من نثر فصحاء العرب أو غيرهم فنرتّلها على طريقة التلاوة في القرآن ونراعي فيها أحكام القراءة وطرق الأداء، لنبصر النقص في كلام البلغاء وضعفه عن مجاراة النظم الموسيقي القرآني، بل فيه تجريد له من زينته وإظهار لعيوبه في تركيب مادة كلماته وهي الحروف[57].

وليست ألفاظ القرآن فقط هي المتسببة في الإيقاع القرآني، بل إنّ حركاتها الصرفيّة واللغوية تجري مجرى الحروف نفسها في سبب الإيقاع، فهي تقع مؤتلفة مع أصوات الحروف، وهذا ما حكاه الرافعيّ وضرب له مثالًا من القرآن بقوله تعالى "ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر" [القمر:36] فإن الضمة ثقيلة في كلمة النذر لتواليها على النون والدال، فضلا عن كون الحرف شديدًا ونابيًا، لكنها عند التأمل وحسن السمع تجد لها وقعًا عجيبًا في النفس وكأنها تثقيل لخفة التتابع في الفتحات من كلمة تمارَوا، كما تكون الأحماض في الأطعمة[58].

2- تناسب الأصوات مع المعاني في النصّ القرآني:

هذا المحتوى هو من أهم ما يتضمنه الأسلوب الصوتيّ، لأنّه يشارك الحجاج في صياغة المعاني الوافدة على السامع، وهو باب كبير جدًا سأحاول الوقوف عند أبرز ما يحتويه.

وقد تكلّم في هذا بشكل واضح مفصّل ابن جنّي في كتابه الخصائص، حيث وضع بابًا سمّاه باب تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني" بدأ به بما يشوق القارئ فقال: " هذا غور من العربيّة لا ينتصف منه ولا يكاد يحاط به، وأكثر كلام العرب عليه، وإن كان غفلًا مسهوًّا عنه"[59].

---

[56] – سبق تخريجه من الجامع لأحكام القرآن.

[57] – إعجاز القرآن: ص152.

[58] – المصدر نفسه: ص 161.

[59] – الخصائص: ج2، ص147.

ومعلوم أن ابن جنّي قد سبق في كلامه عن الاشتقاق الأكبر، والاشتقاق الأكبر مردّه إلى أنّ للحروف معانيَ تدور عليها تقاليب الكلمات، قال ابن جنيّ "وأمَّا الاشتقاق الأكبر فهو أن تأخذ أصلًا من الأصول الثلاثية، فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنًى واحدًا, تجتمع التراكيب الستة وما يتصرف من كل واحد منها عليه, وإن تباعد شيء من ذلك عنه رُدَّ بلطف الصنعة والتأويل إليه, كما يفعل الاشتقاقيون ذلك في التركيب الواحد"[60].

ويضرب ابن جنّي لدوران الحروف على معنى واحد وإن تقدّمت أو تأخرت أو توسطت؛ يضرب لذلك أمثلة كثيرة، سأكتفي بنقل مثال واحد، وهو تقليب كلمة "ج ب ر" فهي –أين وقعت– للقوة والشدة, منها: "جبرت العظم والفقير" إذا قويتهما وشددت منهما, ومنها: "رجل مجرب" إذا جرَّسته الأمور ونجذته، فقويت منّته واشتدت شكيمته, ومنه الجراب؛ لأنه يحفظ ما فيه, ومنه "البُرْج" لقوته في نفسه وقوة ما يليه به، وكذلك "البَرَج" لنقاء بياض العين وصفاء سوادها هو قوة أمرها، أنه ليس بلون مستضعف, ومنها "رجَّبت" الرجل إذا عظَّمته وقوَّيت أمره, ومنه "رجب" لتعظيمهم إياه عن القتال فيه[61].

هذا في تصاقب الألفاظ للمعاني حال تماثل أصول حروفها، لكنّ ابن جني يتوسّع أكثر من ذللك في باب تصاقب الألفاظ للمعاني، فيتحدّث عن تقارب الألفاظ لتقارب المعاني، ويقول في ذلك إنه باب واسع، ويمثّل له بأمثلة مختلفة منها: كلمتي الأزّ والهزّ، فالاختلاف بين الهمزة والهاء، والهمزة أقوى من الهاء وأشدّ، ولذك كان الأزّ أقوى في المعنى من الهزّ، فكان الأزّ للأحياء، والهزّ للأحياء وغير الأحياء كالجذع مثلًا.

يقول ابن جنيّ "من ذلك قول الله سبحانه "ألم تر أنّا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا" [مريم 83] أي: تزعجهم وتقلقهم, فهذا في معنى تهزّهم هزًّا, والهمزة أخت الهاء, فتقارب اللفظان لتقارب المعنيين. وكأنهم خصّوا هذا المعنى بالهمزة؛ لأنها أقوى من الهاء, وهذا المعنى أعظم في النفوس من الهزِّ؛ لأنك قد تهز ما لا بال له كالجذع وساق الشجرة, ونحو ذلك"[62].

---

[60] – الخصائص: ج2، ص136.

[61] – المصدر نفسه: ج2، ص137- 138.

[62]– المصدر نفسه: ج2، ص148.

ويردف ابن جنّي بابَ تصاقب الألفاظ للمعاني، بباب يقارب هذا الباب في أهمية الحرف وتأثيره في المعنى؛ سمّاه "باب في إمساس الألفاظ أشباه المعاني"، قال في بدايته "اعلم أنّ هذا موضع شريف لطيف، وقد نبَّه عليه الخليل وسيبويه, وتلقته الجماعة بالقبول له والاعتراف بصحته"[63].

وضرب لذلك ابن جنّي أمثلة كثيرة وأطال في هذا الباب، فذكر أولًا ما نبّه عليه الخليل وسيبويه ثم بيّن ما استخلصه هو بنفسه، فقال: "قال الخليل: كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومدًّا فقالوا: صَرَّ, وتوهموا في صوت البازي تقطيعًا فقالوا: صرصر. وقال سيبويه في المصادر التي جاءت على الفعلان: إنها تأتي للاضطراب والحركة, نحو: النقزان والغلبان والغثيان, فقابلوا بتوالي حركات المثال توالي حركات الأفعال.ووجدت أنا من هذا الحديث أشياء كثيرة على سَنَن ما حدّاه، ومنهاج ما مثّلاه"[64].

وما ذكره ابن جنّي يمكن أن يقسّم إلى ثلاثة أقسام: قسم ذكر فيه مشابهة اللفظ للمعنى، وقسم ذكر فيه مشابهة أصوات اللفظ لأصوات المعنى، وقسم ذكر فيه مشابهة ترتيب أصوات اللفظ بترتيب أحداث المعنى.

أمّا مشابهة اللفظ للمعنى فذكر مثلًا: المصادر الرباعية المضعّفة التي تأتي للتكرير نحو: الزعزعة والقلقة، والمصادر والصفات التي تأتي للسرعة نحو: الجمزى والولقى، فجعلت العرب بذلك المصدر المضعّف الذي تكرر فيه حرفان للفعل الدال على التكرار، وجعلوا المصادر والصفات التي توالت حركاتها للفعل الذي توالت حركاته وحمل معنى السرعة[65].

ومن ذلك أيضًا ما ذكره ابن جني "أنهم جعلوا تكرير العين في المثال دليلًا على تكرير الفعل, فقالوا: كسَّر وقطَّع وفتَّح وغلَّق. وذلك أنهم لما جعلوا الألفاظ دليلة المعاني فأقوى اللفظ ينبغي أن يقابل به قوة الفعل, والعين أقوى من الفاء واللام, وذلك لأنها واسطة لهما ومنكوفة بهما, فصارا كأنهما سياج لها, ومبذولان للعوارض دونها. ولذلك تجد الإعلال بالحذف فيهما دونها...فلمَّا كانت الأفعال دليلة المعاني

[63] – المصدر نفسه: ج2، ص 154.

[64] – الخصائص: ج2، ص 154- 155.

[65] – المصدر نفسه: ج2، ص155.

كرروا أقواها وجعلوه دليلًا على قوة المعنى المحدث به, وهو تكرير الفعل, كما جعلوا تقطيعه في نحو: صرصر وحقحق, دليلًا على تقطيعه"[66].

وأمّا القسم الثاني فهو مشابهة أصوات اللفظ لأصوات المعنى؛ فقال عنه "باب عظيم واسع, ونهج متلئب عند عارفيه مأموم، وذلك أنهم كثيرًا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبَّر بها عنها, فيعدلونها بها ويحتذونها عليها, وذلك أكثر مما نقدره، وأضعاف ما نستشعره"[67].

وضرب لذلك أمثلة متعدّدة أذكر منها:

الخضم والقضم: فجعلت العرب الخضم لأكل الرطب كالبطيخ والقثاء، وجعلت القضم للصلب اليابس كقضم الدابة للشعير، "فاختاروا الخاء لرخاوتها للرطب, والقاف لصلابتها لليابس حذوًا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث"[68].

ومن ذلك النضح والنضخ، فالنضخ أقوى من النضح، فجعلوه النضح للماء الضعيف والنضخ للماء القوي، "قال الله سبحانه: "فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ" فجعلوا الحاء -لرقّتها- للماء الضعيف, والخاء -لغلظها- لما هو أقوى منه"[69].

ومن ذلك أيضًا القدّ طولًا والقط عرضًا، "وذلك أن الطاء أحصر للصوت وأسرع قطعًا له من الدال, فجعلوا الطاء المناجزة لقطع العرض؛ لقربه وسرعته, والدال المماطلة لما طال من الأثر وهو قطعه طولًا"[70].

وأما القسم الثالث فهو مشابهة ترتيب اللفظ لترتيب المعنى قال فيه ابن جني: " ومن وراء هذا ما اللطف فيه أظهر, والحكمة أعلى وأصنع، وذلك أنهم قد يضيفون إلى اختيار الحروف وتشبيه أصواتها بالأحداث

---

[66] – المصدر نفسه:ج2، ص 157.

[67] – المصدر نفسه: ج2 ص159.

[68] – المصدر نفسه: ج2، ص160.

[69] – الخصائص: ج2، ص 160.

[70] – المصدر نفسه: ج2، ص 160.

المعبَّر عنها بها ترتيبها, وتقديم ما يضاهي أول الحدث, وتأخير ما يضاهي آخره، وتوسيط ما يضاهي أوسطه, سوقًا للحروف على سمت المعنى المقصود والغرض المطلوب"[71].

ومثّل ابن جني لذلك بحروف كلمة بحث: فقال "فالباء لغلظها تشبه بصوتها خفقة الكف على الأرض، والحاء لصحلها تشبه مخالب الأسد وبراثن الذئب, ونحوهما إذا غارت في الأرض، والثاء للنفث والبث للتراب، وهذا أمر تراه محسوسًا محصلًا, فأيّ شبهة تبقى بعده, أم أيّ شك يعرض على مثله"[72].

ومثّل أيضًا بحروف كلمة شدّ، فقال "ومن ذلك قولهم: شدَّ الحبل ونحوه. فالشين بما فيها من التفشي تشبه بالصوت أول انجذاب الحبل قبل استحكام العقد, ثم يليه إحكام الشدّ والجذب وتأريب العقد, فيعبر عنه بالدال التي هي أقوى من الشين, ولاسيما وهي مدغمة, فهو أقوى لصنعتها وأدلّ على المعنى الذي أريد بها"[73].

وإدراك هذه المعاني عند ابن جنّي على صعوبتها مطلب جليل فيه لذة وحظوة، لذلك كان يحثّ على البحث فيها ويقول "فهذا ونحوه أمر إذا أنت أتيته من بابه, وأصلحت فكرك لتناوله وتأمله, أعطاك مقادته وأركبك ذروته وجلا عليك بهجاته ومحاسنه, وإن أنت تناكرته وقلت: هذا أمر منتشر, ومذهب صعب موعر, حرمت نفسك لذته, وسددت عليها باب الحظوة به"[74].

ويردّ ابن جني على اعتراض المعترضين أنّ أصوات الألفاظ لا تتطرد ولا تتسق مع المعاني على طول خطّ اللغة العربية، وأنّ فيه ما هو غير ظاهر، فيردّ بذلك ابن جنّي أنّ خفاءه أو عدم اطراده له أسباب ثلاثة، مرجعها إما للباحث في عدم إدراكه وقلة نظره، وإما لأنّ للغة أصولا خفيت عنّا ولم تصلنا، أو لأنّ الأوائل وصلت إلى أشياء لم يصل لها الأواخر وغابت عنهم، يقول "فإن أنت رأيت شيئًا من هذا النحو لا ينقاد لك فيما رسمناه, ولا يتابعك على ما أوردناه, فأحد أمرين: إما أن تكون لم تنعم النظر فيه فيقعد

[71] – المصدر نفسه: ج2، ص164.

[72] – المصدر نفسه: ج2، ص165.

[73] – المصدر نفسه: ج2، ص165.

[74] – المصدر نفسه: ج2، 164

بك فكرك عنه, أو لأن لهذه اللغة أصولًا وأوائل قد تخفى عنا وتقصر أسبابها دوننا كما قال سيبويه، أو لأنَّ الأول وصل إليه علم لم يصل إلى الآخر"[75].

بقي باب تناسب أصوات الحروف مع المعاني بابًا لم يعتنِ به إلا القليل، وكان للأستاذ أبي فهر محمود شاكر ثلاث مقالات مهمة تحت عنوان "علم معاني أصوات الحروف سرٌّ من أسرار العربية نرجو أن نصل إلى حقيقته في السليقة العربية"، حاول فيها الكشف عن بعض أسرار أصوات الحروف ولم يدّع إحاطته بذلك، وسأتناول بعض أفكاره التي من الممكن أن يبنى عليها في دراسة النصّ القرآني.

1- يفرّق شاكر بين الصوت وبين الحرف، فالصوت هو الهواء أو النفس المقذوف من الجوف إلى الحلق والفم، فهو يخرج مندفعا حتى يصطدم بما يردّه أو يثنيه، وهذا الرادّ يسمى مقطعًا، لأنه قطع استطالة النفس واندفاعه، وقد يكون هذا المقطع في الحلق أو في الفم أو في الشفتين، ولكل مقطع جرس مميز ومختلف يميّز الحرف حسب المقطع الذي قطعه، وانثناء الحرف أو ارتداده عند المقطع وإحداثه للجرس هو ما يسمى الحرف [76].

2- دراسة شاكر تدور حول صوت الحرف لا الحرف نفسه، فهو يبحث عن "المعاني النفسية التي يمكن أن تنبض بها موجة اندفاعه من مخرجه من الحلق أو اللهاة أو الحنك أو الشفتين أو الخياشيم"[77].

3- ليست المعاني التي تحملها أصوات الحروف معانٍ نفسية –عواطف وأحاسيس- فحسب، بل هي كل ما يستطيع صوت الحرف أن يحمله من صور عقلية معبّرة عن الطبيعة وما فيها من مادّة، وما يتّصل بها من حركات وأصوات وأضواء وغير ذلك[78].

4- يرى شاكر أنّ العربية أدقّ اللغات احتفاظًا بالمعاني الفطريّة للحروف، وأنّ ما لاقاه الإنسان الأول من ضرورات الحياة الفطرية دفعه للتعبير عنها بأصوات تضاهيها وتشابهها[79].

---

[75] – الخصائص: ج2، ص 166.

[76] – محمود شاكر، جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر، جمعها عادل سليمان جمال، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 2003م، ج2، ص710.

[77] – المصدر نفسه: ج2، ص708.

[78] – المصدر نفسه: ج2، ص708.

[79] – المصدر نفسه: ج2، ص718.

5- يضرب شاكر أمثلة كثيرة على فطرية الحروف وأنها تحمل معاني واقع الإنسان وحاجته، فمن الحاجات الفطرية للإنسان التي تدفعه للتعبير حاجة النداء والتعجب والاستفهام والإشارة والتنبيه، ونجد أنّ العرب اعتمدت فيها على حروف الحلق وأهمها الهمزة، لأنّ حروف الحلق تقذف من الجوف لتبلغ بالصوت أقصى ما يطيقه الهواء دون أن يقف في سبيلها شيء ودون أن يحجزها أضراس ولا شفة ولا لسان، وهذا يحاكي معنى الإشارة والتنبيه لأنهما يتطلبان من المشير والمنبه إرسال الصوت والهواء إلى حيث يجد إنساناً يسمعه[80].

6- ينطلق شاكر بعد ذلك في جعل حروف الحلق وخصوصًا الهمزة مبدأ له، لأنه يرى فيها الاستجابة الأولى للكائن الحيّ، فلا أحد يشكّ أنّ أول صوت مطاوع للإنسان هو صوت الحلق الجوف، قبل أصوات اللسان والفم والشفة التي تحتاج إلى تدريب، ومعاني الاستفهام والتعجب والنداء التي استخدم لها الحروف الحلقية هي أول ما يحفز الكائن الحيّ على التعبير، لذلك محاولة الإحاطة بمعاني الحروف عليها أن تصاحب الدلالة الفطرية الأولى التي بها يدل الإنسان على أغراضه الأولية، "فكلّ ما يرجع أصل معناه أو بعض فحواه إلى هذه الدلالة" الفطرية، فالواجب أن يستصحب الهمزة مع أي حرف يبحث فيه عن معناه لأنها حرف الحلق الأول، ثم يستصحب الهاء ثم باقي حروف الحلق[81].

7- سأقف عند خمسة أمثلة ذكرها شاكر وهي "أكّ – أشّ – أجّ – ألّ – أنّ".

أكّ: صوت الكاف فيه احتكاك الأجسام اللينة بعضها ببعض، لأنّ الكاف صوت شيئين يزاحم بعضهما الآخر، والأكّة في اللغة معناها الزحمة والضيق، وهذا المعنى ثابت للكاف في قولك "حكّ وعكّ وهكّ" الشيء أي سحقه[82].

أشّ: الشين بطيعتها تحمل صوتها المتفشّي المستطيل المتليّن الذي يهمس به، وحين يلقى صوتها في الأذن فإنها تمثّل صوت الحركة الخفيفة من احتكاك الثوب القشيب أو وقوع الرش الخفيف من المطر، أو حفيف الورق على الشجر، أو صوت الضاحك إذا قذف بضحكة خفيفة دون قهقهة مع انفراج الشفتين،

[80] – جمهرة مقالات محمود شاكر: ج2، ص718.

[81] – المصدر نفسه: ج2، ص726.

[82] – المصدر نفسه: ج2، ص729.

وتجد أكثر المعاني دائرة في أشّ- هشّ- حشّ- خشّ- بشّ، ثم تأتي الحروف الأخرى من "بشّ ورشّ ونشّ"، والأشّ الطلاقة والبشاشة والخفة والضحكة[83].

أجّ: الجيم أقسى وأغلظ صوتًا من الشين واللسان أشدّ ضغطا للهواء في الحنك، وصوتها جافٍ على السمع ظامئ لا ماء فيه ولا قطرولا همس، فاستقلت عن الشين ببعض معانيها، فكان معناها يحاكي صوتها في أجّت النار إذا اشتعلت وفي هجّت أيضا إذا استعرت[84].

ألّ: مخرج اللام من أدنى حافة اللسان إلى منتهى طرفه حيث يندفع إليها الهواء من الجوف فيحصره اللسان حصرا بين الشدة والرخاوة، فيجوب الهواء في ميدان قريب من الخيشوم وكأنه ينتظر مخرجا منه وهو مخرج النون، لذلك قد تجد اللام قد أشربت من غنة النون، لذلك تجدها بانحصارها قد شربت من معاني مخارج ما قبلها كالجيم والشين ومن معاني مخارج ما يليها كالراء والنون، فكانت أكثر الحروف دورانًا في اللغة، فهي تمثل التردد والانتشار، وصوتها حين تقول ألّ يوحي باصطدام وحركة، لذلك ألّ الفرس إذا أسرع فاهتزّ، وألّت المرأة رفعت صوتها بالدعاء، والأليل هوالحنين عند الجزع[85].

أنّ: مخرجها يكون من انبعاث الهواء إلى الخيشوم، فكأنه يجول في الأنف ويتبعه صدى ناعم خفيف مع الغنة المدويّة، وهو حرف دمث ناعم حلو مطاوع يسيل مع الهواء، لذلك كان أقرب الحروف للتعبير عن المعاني الصافية التي لا تتحامل أصواتها إلى مادّة، لذلك هو يدور على المعاني النفسية، كآلام النفس وأحزانها وأحلامها، كما نقول في أنّ، حنّ، هنّ، خنّ [86].

ما عرضه الأستاذ شاكر لا يخلو من طرافة ولذّة لغوية، وقد لا يتّسق مع اللغة كلها، لكنّه بطبيعة الحال يفرّق بين الأصل المستعمل وبين المجاز الذي ألحق بالأصل، وبذلك تستوي اللغة عنده وتستقيم بتركيب دقيق.

وحين نأتي إلى النصّ القرآني الذي استعمل لغة العرب؛ لا يخفى ما فيه من تناسب بين أصوات الحروف ومعانيها، ولكنّ هذا لا يلزم وجوده في سائر القرآن، أو أن يكون الحجاج قد سخّره تسخيرًا دائمًا، إنما

---

[83] – المصدر نفسه: ج2، ص730

[84] – المصدر نفسه: ج2، ص730

[85] – جمهرة مقالات محمود شاكر: ج2، ص732.

[86] – المصدر نفسه: ج2، ص 733.

هو لون من ألوان تصريف الحجة وبيانها، إذا غاب حينًا ظهر غيره، وسأتناول ذلك بالتطبيق القرآني على سورة من سوره؛ محاولًا إظهار آراء ابن جني وشاكر، وذلك في الدراسة التالية وهي ربط الأداة الصوتية بالحجاج.

ثالثًا: ربط الأداة الصوتية بالحجاج القرآني:

وسأدرسه من جانبي المحتوى الصوتي الذي عرضته، فسأدرس ربط التلاؤم الصوتي بالحجاج القرآني أولًا، ثم ربط تناسب المعاني والأصوات بالحجاج القرآني ثانيًا.

1- ربط التلاؤم الصوتي بالحجاج القرآني:

إذا حاولنا أن نربط الحجاج القرآني بهذا التأليف الصوتي في نظم القرآن قلنا إن الحجاج يستخدم لغة واللغة تقوم على الكلمات والكلمات تقوم على الحروف، ومادّة التأثير في نفس السامع هي الصوت الذي به تصل الحجة لعقل المتلقي وقلبه.

إنّ هذا التأليف الصوتي من جهة الحجاج القرآني يقوم على أمرين:

1- النظام الصوتي القرآني نظام بديع يقوم على إقامة الروابط والعلاقات بين مخارج الحروف وصفاتها وحركاتها، ليشكّل بذلك إيقاعًا قرآنيًا فريدًا يراعي نفس السامع ويأخذ بيده إلى الإصغاء لحجته مؤمنًا كان أم كافرًا، وهذه المراعاة تقوم على أمور عديدة لخصها الدكتور عبد الله دراز بقوله واصفًا النظام الصوتي للقرآن: "قسّمت فيه الحركة والسكون تقسيمًا منوّعًا، يجدد نشاط السامع لسماعه، ووزعت في تضاعيفه حروف المدّ والغنّة توزيعًا بالقسط يساعد على ترجيع الصوت به، وتهادى فيه النفس فيه آنا بعد آن، إلى أن يصل إلى الفاصلة الآخرى فيجد عندها راحته العظمى"[87].

الايقاع في الموسيقى يعني القيم الزمنية للفقرات أو النغمات والعلاقة بينهما من حيث الطول والقصر، ويدرس دومًا من حيث الحدة والغلظة ، الطول والقصر، الشدة واللين، الصعود والنزول.

[87] – النبأ العظيم: ص 103.

وسأقف عند مقطعين من سورة الذاريات يظهر بينهما الفرق الإيقاعيّ بشكل واضح، ويظهر بهما كيفية استخدام الحجّة القرآنية لإيقاع الآيات في سبيل امتلاك عقل السامع وقلبه ، من خلال ما سأبينه من الطول والقصر والشدة واللين والصعود والنزول.

المقطع الأول هو بداية السورة في قوله تعالى "وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (1) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (2) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (3) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (4) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (5) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (6) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (7) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (8) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (9) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (10) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (11) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (12) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (13) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ" [الذاريات 1-14].

يظهر في إيقاع هذه القطعة القرآنية سرعة الحركة، قصر الآية، قوة البناء، الشدّة والنبّر، الجو المكهرب، توتر الحروف، انسجام الإيقاع مع هول الموقف ورهبة اليوم الآخر.

أمّا المقطع الثاني الذي يلي المقطع الأول مباشرة قوله تعالى نَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (16) كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (18) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (19) وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (20) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ(21) [الذاريات 15 -21].

يظهر في إيقاع هذه القطعة القرآنية بطء الحركة، رخاوة البنية، توسط طول الآية، الانسجام مع جمال نعيم الجنة والترغيب في عمل أهلها.

ولو وقفنا بشكل تفصيلي مع المقطعين لنتبيّن الفروق في استعمال الحروف وصفاتها وانسجامها مع الجملة كلها لوجدنا:

في المقطع الأول استعمال الحروف المستعلية والشديدة [88]، ويلازم الاستعلاء صفة التفخيم، ونجد أيضًا حروف القلقة[89] وحروف الإطباق[90] ، وهذه بعض الأمثلة من المقطع الأول (وقرًا، لصادق، لواقع، الحبك، مختلف، أفك، قتل، الخرّاصون، غمرة)

أما في المقطع الثاني نجد الحروف المستفلة والرخوة، وهما صفتان بعكس صفتي الاستعلاء والشدة، وحروفهما باقي الحروف الهجائية، ويلازم الاستفال الترقيق، ونجد الأغلب على الآية حروف الانفتاح وهي باقي الحروف الهجائية باستثناء حروف الإطباق، وهذه بعض الأمثلة من المقطع الثاني (عيون، آتاهم، محسنين، الأسحار، أموالهم، المحروم).

وهذا الانتقال من أسلوب عالٍ في اهتزازه، قويّ في حروفه إلى أسلوب هادئٍ في بيانه، رخوٍ في حروفه؛ ينسجم مع الجوّ الذي يناسب كل مقطع، فالحجّة القرآنية تواجه السامع في المقطع الأول بهذا الإيقاع الشديد لمشهد مخيف من مشاهد يوم القيامة ثم تنقله في المقطع الثاني إلى إيقاع خفيف قريب من النفس لمشهد جميل أو وصف مرغّب من أوصاف أهل الجنة، فالإيقاع الأول يخيف السامع ويربكه،والثاني يجذبه ويرغّبه، وهنا توظّف الحجّة القرآنية اختلاف هذين الإيقاعين وفَجْأتهما في نفس السامع؛ بدعوته في آخر المقطع الثاني للتفكر والوقوف على المعاني ليحصل مقصود الحجاج.

2- في القرآن استهواء صوتيّ كما يسميه الرافعي، وهذا الاستهواء الصوتي للعربي وللعجميّ وبه تقوم الحجة القرآنية في التأثير والوصول، لأنها تحاكي بلاغة طبيعية في النفس الإنسانية التي تتقبل الأصوات حسب نسب تباعد مخارجها أو تقاربها وتتأثر بها، فالصدمة الأولى للنفس دومًا هي أجراس الحروف وأوزان الكلمات مهما اختلفت العقول أو اللغات، "فلو اعتبرنا ذلك في تلاوة القرآن على طرق الأداء الصحيحة لرأيناه أبلغ ما تبلغ إليه اللغات في هزّ الشعور واستثارته من أعماق النفس، وهو من هذه الجهة يغلب بنظمه على كل طبعٍ عربيّ أو أعجميّ، حتى إن القاسية قلوبهم من أهل الزيغ والإلحاد، ومن لا يعرفون لله آية في الآفاق ولا في أنفسهم، لتلين قلوبهم وتهتزّ عند سماعه، لأن فيهم طبيعة إنسانية، ولأنّ تتابع الأصوات على نسب معينة بين مخارج الأحرف المختلفة، هو بلاغة اللغة الطبيعية، التي

[88] – حروف الاستعلاء مجموعة في قولهم "خصّ ضغط قظ"، وحروف الشدّة في قولهم "أجد قط بكت".

[89] – حروف القلقة مجموعة في قولهم "قطب جد".

[90] – حروف الإطباق الصاد والضاد والطاء والظاء.

خلقت في نفس الإنسان، فهو متى سمعها لم يصرفه عنها صارف من اختلاف العقل أو اختلاف اللسان"[91].

يتحدث رولان بارت في كتابه "لذّة النصّ" عن مصطلح سمّاه "هسهسة اللغة"، ويقصد به موسيقى المعنى، فاللغة تودع نفسها في الدّال الصوتي، وهذا الدّال الصوتي بعروضه ووزنه ونطقه ينشر المتعة في أذن السامع ويحقق الانفعال أيضًا. وهنا يصف رولان بارت نفسه وهو يستمع إلى أطفال صينيين يقرؤون بصوت مرتفع، يقول" كنت أشاهد فيلم أنطونيني عن الصين، اختبرت هسهسة اللغة في لقطة من اللقطات: في شارع من شوارع إحدى القرى، كان بعض الأطفال جالسين مستديرين إلى جدار وهم يقرؤون بصوت مرتفع،... وكان المعنى بالنسبة إليّ ممتنعًا خرقه بشكل مضاعف: فقد كنت أجهل اللغة الصينية، وكان يحول بيني وبين المعنى التشويش المتزامن لهؤلاء القراء، ولكني كنت أسمع من خلال نوع من الإدراك الهادئ بمقدار ما كان هذا الإدراك يتلقاه من كثافة المشهد، كنت أسمع الموسيقى، والنفس، والتوتر، والدقة"[92].

إنّ الحجج دومًا لها أساسات؛ بها تصير الحجة دليلًا مقنعًا للسامع، وتدفعه إلى الثقة بذاك الدليل، هذه الأساسات يسميها رولان بارت في كتابه "قراءة جديدة للبلاغة القديمة"؛ بذور التصديقات.

فالإقناع كما يراه بارت يدفع إلى الثقة ويُلتَمَس له دومًا الأدلة المنطقية أو شبه المنطقية، والتي تسمى "التصديقات"، هذه التصديقات تقوم على مواد ابتكار من قطع لغوية يسميها بارت "بذور التصديق"[93]. فبذور التصديق تتعلق بالخطاب نفسه من حيث انتقاء الكلمات ومن حيث تأليفها والجمع فيما بينها، وفي مجال انتقاء الكلمات يفرّق بارت بين اللغة الجامدة واللغة الحيّة، فيرى أن الأصل في اللغة أن تكون جامدة، لكنّ انتقاء الكلمات أو ما يسميه الألوان يجعل في اللغة حياة وينشطها، يقول " إن الحالة الحقيقية للغة هي جامدة، أما الحالة الثانية فهي حية: ألوان، أضواء ورود، والزخارف هي إلى جانب العاطفة، الجسد، إنها تجعل الكلام محبوبًا"[94].

---

[91] – إعجاز القرآن: ص153.

[92] – رولان بارت، لذّة النصّ، ت: منذر عياشي، دار نينوى، دمشق، ؟، 2014م، ص21.

[93] – رولان بارت، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، ت: عمر أوكان، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2011م، ص126.

[94] – المصدر نفسه: ص 141

أما في الجانب الثاني وهو ما يهمنا أكثر فهو الجانب التجميعيّ التأليفي التي تجمع فيه الكلمات داخل الجملة؛ فيتحدّث بارت عن نمطين من البناء، ويهمنا النمط الثاني بالضرورة.

النمط الأول هو ما سمّاه بالبناء الهندسي للجملة وهو كما يقول متعلق بدورة الجملة عند أرسطو "جملة تتوفر بذاتها على بداية، نهاية، وامتداد يمكننا بسهولة احتضانه"[95]. أي أنّ أي جملة لها بناء حيوي يبدأ بالاستهلال وينتهي بالخاتمة وما بينهما امتداد حيوي للبداية والنهاية.

أما النمط الثاني فهو ما سمّاه بالبناء الديناميكي، فالجملة متصوَّرة على أنها دورة حيوية بواسطة الحركة التي فيها، وهذه الحركة إنما هي صعود وهبوط، وهو كما يقول نوع من الاهتزاز داخل الجملة يتوقف على نوع المعنى المتولد من الجملة، ولهذه الحركة ثلاثة أنماط: نمط وحشيّ متنافر، ونمط لطيف معشوق، ونمط مختلط فيه تموّج وتقلب[96].

إذن يرى رولان بارت أنّ صياغة الجملة في بنائها الهندسي وفي بنائها الديناميكي الصوتيّ يسهمان في صياغة الحجج أو ما يسميها بذور التصديقات، فهو يرى فيها تهيئة للمحاججة، لأنّ أدلة الحجاج كثيرًا ما تكون قائمة على أصول غير مقصودة لذاتها في الحجاج، وهي بذور التصديقات، فأحسن تهييء للحجاج عند رولان بارت "هو ذاك الذي يكون المعنى فيه مختفيًا، وحيث الأدلة موزعة على شكل أصول غير واضحة، بذور التصديقات" [97].

إنّ هذا الاستهواء الصوتيّ كما سماه الرافعيّ، أو هذا البناء الديناميكي كما سمّاه بارت، تجلّى في القرآن بصورة واضحة من خلال أمور صوتية متعددة، من أهمها موضوع عام وشامل داخل القرآن وهو التوازي الصوتيّ، وهذا التوازي الصوتي يحمل مظاهر مختلفة منها:

أ- الفاصلة القرآنية: وقد سبق أن أشرت إليها في حديثي عن الرماني في التلاؤم الصوتيّ، وهي من أهم مصادر الإيقاع داخل النصّ، وتشبه القافية في الشعر، وهي الطريقة التي بان بها القرآن وتميّز عن سائر النصوص الأخرى، وهي مايعطي القرآن إيقاعًا منفردًا.

---

[95] – المصدر نفسه: ص152.

[96] – المصدر نفسه: ص 152 –153.

[97] – المصدر نفسه: ص 134 –135.

مثال ذلك الفاصلة القرآنية في صورة المؤمنين وصورة الكافرين يوم القيامة، والتي تضفي على النصّ نغمة صوتية وإيقاعًا موسيقيًا لمشهدين متوازيين، قال تعالى "فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ (19)إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ (20)فَهُوَ فِي عِيشَة رَّاضِيَة (21)فِي جَنَّةٍ عَالِيَة (22)قُطُوفُهَا دَانِيَة (23)كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ (24)وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ (25)وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (26)يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ (27)مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (28)هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ (29)خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30)ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31)ثُمَّ فِي سِلْسِلَة ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعا فَٱسْلُكُوهُ (32)إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ" [الحاقة 19 -33].

اختيار الهاء لتكون فاصلة قرآنية لمشهدين ختاميين من مشاهد يوم القيامة لما في هذا المخرج من اهتزازت صوتية تخرج ما يجيش في النفس من انفعالات نفسية، سواء أكان انفعالا إيجابيًا لمن نجا وفاز أو سلبيًا لمن خاب وخسر، وفي هذه الفاصلة استهواء صوتي واضح لجذب المستمع وجعله يعيش حالة نفسية فرحة مع المؤمن وحزينة وخائفة مع الكافر[98].

ب- الترجيع: هو تكرار أصوات أو كلمات أو مقاطع على مسافات منتظمة بهدف الاستهواء الصوتي للسامع المحاجَج، وهو يحمل دلالات شعورية ونفسية، يوصلها للسامع من خلال توازنه الصوتي، نجد ذلك مثلًا في قوله تعالى عن مؤمن آل فرعون في آيات متتابعة "يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿29﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿30﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿31﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿32﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ" ﴿33﴾ [غافر29-33]

فتكرار كلمة قوم يحدث توازيا صوتيًا بين بدايات كل نصيحة وإرشاد، ويحدث نداء مفعمًا بالتلطف والحنان؛ ليستدرج مشاعر المخاطبين، ويوقظهم من غفلتهم، هو كالتمهيد في ما يريد التعبير عنه ليصير مقبولًا عند السامع بعيدًا عن المباشرة في الأمر والنهي[99].

---

[98] – جماليات الإشارة النفسية: ص328-329.

[99] – المصدر نفسه: ص 307.

ج- الجناس: وهو أداة صوتية تؤثر في الإيقاع، وتحدث موازاة صوتية بين دوال مختلفة في المعنى، فتطرب لها الآذان وتنصت لها الأسماع، ولعلّ جمالها الصوتيّ يحدث من مخالفة التوقّع عند السامع للمعنى، لأن السامع يتوقع من تماثل الأصوات تماثل المعاني، فيصبح الصوت مثيرًا للدلالة، والجناس هو الذي يربط بين المعنى الذي يريده المتكلم ويخالف به توقع السامع وبين المثير الصوتي.

ونجد ذلك في قوله تعالى "إن الإنسان لربه لكنود * وإنه على ذلك لشهيد * وإنه لحب الخير لشديد" [العاديات 6-8]. فكلمة شهيد تتجانس صوتيًا مع كلمة شديد، وهذه الصلة بين جحود الإنسان ومعرفته بأن المنعم هو الله، وبين حبّه للمال وأثرته له، يمثّل للسامع تحديًا صارخًا ومفارقة عجيبة من هذا الإنسان الذي يتعامل مع الله كما يتعامل مع المخلوقين، فيمسك المال ويحرص عليه، ويجحد نعم الله وهو يعلم أن المنعم هو الله[100].

وهناك أساليب أخرى للاستهواء الصوتي مبثوثة داخل النصّ القرآني، كالتنغيم في كون النص القرآني لا يجري على وتيرة واحدة وهذا أشرت إليه في تمثيلي بآيات من سورة الذاريات، وأيضًا كالمفصل وهو عبارة عن محطات صوتية تستريح فيها النفوس، أو هو سكتة خفيفة بين كلمات أو مقاطع، وهذا يخوض فيه علماء التجويد في القرآن أكثر من البلاغيين، فيقفون على الوقف اللازم والسكتات القرآنية وهي خمس سكتات وغير ذلك منا يمسّ الجانب الصوتيّ.

ولا بدّ من التذكير هنا في ربط الحجاج بالأسلوب الصوتيّ أنّ الأسلوب الصوتيّ والجمال التوقيعي التلاؤمي يبقى ستارًا جذابًا، يجذب السامع إلى لبّ النصّ القرآني، فالحجاج ساكن داخل النصّ وليس خارجه، والنصّ أحاط نفسه بنظام صوتيّ فيه المتعة والجمال ولفت الأنظار، شأنه في ذلك شأن الصدفة تحوي في داخلها اللآلئ النفيسة، وهذا المعنى قاله الشيخ دراز: "من هذه الخصوصية والتي قبلها تتألف القشرة السطحية للجمال القرآنيّ، وليس الشأن في هذا الغلاف إلا كشأن الأصداف مما تحويه من اللآلئ النفيسة، فإنه جلّت قدرته قد أجرى سنته في نظام هذا العالم أنْ يغشّيَ جلائل أسراره بأستار لا تخلو من متعة وجمال، ليكون بذلك من عوامل حفظها وبقائها؛ بتنافس المتنافسين فيها وحرصهم عليها، انظر كيف جعل باعثة الغذاء ورابطة المحبّة قوامًا لبقاء الإنسان فردًا وجماعة، فكذلك لما سبقت كلمته أن يصون علينا نفائس العلوم التي أودعها هذا الكتاب الكريم قضت حكمته أن يختار لها صوانًا يحببها

[100] – جماليات الإشارة النفسية: 316.

إلى الناس بعذوبته، ويغريهم عليها بطلاوته، ويكون بمنزلة الحُداء يستحثّ النفوس إلى السير إليها، ويهون عليها وعثاء السفر في طلب كمالها"[101].

2- ربط تناسب المعاني والأصوات بالحجاج القرآني:

إذا كان إضمار المعاني في عباءة الحروف، أمرًا شائعًا في صناعة العرب لألفاظها؛ فقدرة النصّ القرآنيّ وحجاجه للنفس البشريّة، تكمن في انتزاع اللفظ المناسب والأقرب للمعنى المراد، والأبلغ في التأثير، والأوفق لمعنى الجملة كلّها، وهذا ما أشار إليه الرافعيّ بقوله "فلا بدَّ في مثل نظم القرآن من إخطار معاني الجمل، وانتزاع جملة ما يلائمها من ألفاظ اللغة، بحيث لا تندّ لفظة، ولا تتخلّف كلمة، ثم استعمال أمسّها رحمًا بالمعنى، وأفصحها في الدلالة عليه، وأبلغها في التصوير، وأحسنها في النسق، وأبدعها سناءً، وأكثرها غناءً، وأصفاها رونقًا وماءً، ثمّ اطّراد ذلك في جملة القرآن على اتساعه"[102].

إذن ميزة النصّ القرآنيّ أنه يحاجج بألفاظه السامع وفق تركيب معجز، فأي بليغ لا يمتنع عنه أن يأتي إلى فصيح الكلام المبثوث في كتب اللغة ويختار ما شاء، لكنّه لن يستطيع أن يقارب القرآن في تركيبه لهذه الألفاظ المناسبة للمعاني داخل الجملة، بل إنّ الرافعي ذهب أبعد من ذلك، فقال لو أنّ الفصيح أو البليغ من العرب اختار ألفاظ القرآن نفسها بحروفها ومعانيها وأنشأ بها كلامه، لكانت ألفاظًا أخرى لا تشابه القرآن، لأنّ القرآن أظهرها في تركيب ممتنع جعلها أسمى من الاستعمال العادي والطبيعيّ لها، فخرجت إلى أنواع أقدر في الدلالة اللغوية والبيانية، يقول "ولقد صارت ألفاظ القرآن بطريقة استعمالها ووجه تركيبها كأنها فوق اللغة، فإنّ أحدًا من البلغاء لا تمتنع عليه فصيح هذه العربية متى أرادها، وهي بعد في الدواوين والكتب، ولكن لا تقع له مثل ألفاظ القرآن في كلامه، وإن اتفقت له نفس هذه الألفاظ بحروفها ومعانيها، لأنها في القرآن تظهر في تركيب ممتنع فترف به، ولهذا ترتفع إلى أنواع أسمى من الدلالة اللغوية أو البيانية التي هي طبيعة فيها، فتخرج من لغة الاستعمال إلى لغة الفهم، وتكوّن بتركيبها المعجز طبقة عقلية في اللغة"[103].

---

[101] – النبأ العظيم: 104.

[102] – إعجاز القرآن: ص 159.

[103] – إعجاز القرآن: ص 160.

ويستنطق الرافعيّ هذه الفكرة أكثر، فإذا شكّلت لغة القرآن وألفاظه المنتقاة بما يمسّ المعنى ويشاكله، إذا شكّلت عند سامعها ورسّخت في عقله أنها طبقة خاصة في اللغة من حيث التركيب والاستعمال، فإنها بذلك تصنع ما يسميه الرافعي بالتوهّم الطبيعي، بحيث تؤثر في المتلقي دون شعور منه، فيقبل على القرآن وسماعه والإصغاء إلى حجاجه، وتزاداد قناعته أن ما يحويه القرآن حقّ وصواب، وهذا ما يفسّر إقبال الناس على العلماء والعظماء والشعراء، لأنها تتوهم أنهم خاصّة فتتقرّب منهم لتعظم بهم، عبّر الرافعيّ عن هذا بقوله " ومن ثمّ تتنزّل الأفكار منزلة التوهّم الطبيعي... كما ترى فيمن يهتزّ للشعر ويطرب له ويملكه رقّ أعصابه النفسية، فإنه يبصر الشاعر الفحل الذي أعجب به فيتوهّم في رأسه المعنى الكريم والخيال البارع والتعبير الذي هو ضرب من الوحي، وكأنّما يتخيّل من الرأس صومعة إلهية تهبط عليها ملائكة الحكمة والبيان، وإنه ليتوهم ذلك فيهتزّ له هزّة عصبية واضحة تعرفها في انتشائه والتماع عينيه واستطارة ألحاظه وما تنطق به معارف وجهه، فهذا ما سمّيناه باب التوهّم الطبيعي، وهو بمنزلة من الحقائق النفسيّة"[104].

ولو رجعنا إلى آراء ابن جني مثلا عن المصادر الرباعية التي تدلّ على التكرار، لوجدنا قوله تعالى "مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا" [النساء:143] ، تكرر في كلمة مذبذبين حرفا الذال والباء وفي تكرار الصوت ما يدلّ على تكرار الفعل، فالمذبذب لا يقرّ في مكان واحد، وهذا ما يقوم به المنافق من التجائه إلى صف المؤمنين تارة وصف الكفار تارة أخرى، وهذا شبيه بقوله تعالى عن المنافقين أيضًا "فهم في ريبهم يترددون" وتكرار حرف الدال ثلاث مرات في كلمة "يترددون" يوحي بعدم التوقف عن الذهاب والمجيء، اي التأرجح بين الإيمان والكفر [105]، ونقل هذه الصورة الترددية لحالهم من خلال الحروف أبلغ في حجاجهم، وأبلغ في التأثير فيهم، وكأنها تقول لهم نحن ندرك حالكم ونصوّره في كل حرف، فأنتم لا تخفون عن صاحب الحجّة والبيان.

ولو تذكرنا رأي ابن جني في مشابهة ترتيب اللفظ لترتيب المعنى، وترتيب صورة الحرف لصورة المعنى وضرب لذلك هو مثلًا بالفعل "بحث"، نجد في القرآن مثلًا قوله تعالى "ثم ذهب إلى أهله يتمطى" [القيامة 33]، وكأنّ كلمة يتمطى ترسم بحروفها وحركاتها صورة مرئية للمتكبّر الذي لم يصلّ ولم يتصدّق

[104] – المصدر نفسه: ص 160.

[105] – جماليات الإشارة النفسية: ص 277– 278.

واغترّ بنفسه، وكأن هذا المتبختر في مشيته تتطاول أعضاؤه وترتخي بعد شدّها وتنفرد وتمتدّ في مباهاة وخيلاء، وهذا ما تعبّر عنه الألف المقصورة ذات المدّ، بعد شدّة الطاء، وكأن امتداد الألف يشبه امتداد يديه ورجليه عند مشية تباهيه وخيلائه[106].

وإذا رجعنا إلى آراء شاكر في محاكاة أصوات الحروف للمعاني داخل الجملة كلها وليس في اللفظة المفردة فقط، كأنْ يتكرر صوتٌ واحدٌ في السياق كله على عدّة ألفاظ، أو تأتي أصوات متقاربة في مخارجها مهموسة أو مجهورة أو حلقية؛ وجدنا أمثلة قرآنية كثيرة على ذلك، منها مثلًا جرس حرف السين في سورة الناس الذي تكرر في كامل السورة "قل أعوذ برب الناس * ملك الناس * إله الناس* من شر الوسواس الخناس* الذي يوسوس في صدور الناس* من الجنة والناس".

فالسين حرف لثوي لا يمكننا أن ننطق به وفمنا مفتوح بل لا بدّ من أن تلتقي الأسنان العليا بالسفلى، ونجد أنّ اختيار هذا الحرف يناسب خفوت صوت الوسوسة الذي يمارسه أهل المكائد والمكر، وجرسها الدائم —فهي حرف صفير وهمس– له هواء يجري دون أن ينقطع، وهذا يناسب استمرارية معركة الشيطان مع الإنسان ومعركة الخير مع الشرّ التي لا تنقطع[107]، وهذا معنى حجاجيّ لأهل الإيمان وأهل الكفر، وهو يوظّف له أدقّ الجزئيات من خلال حروف تناسب المعنى.

ومنها أيضًا جرس صوت العين الذي صاحب آية الدعاء وتكرر في عدد من الألفاظ في قوله تعالى: **"وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان"** [البقرة 186]. فالعين صوت حلقيّ مجهور، وهي من أقصى أصوات الحلق بعد الهمزة والهاء، وكأن القرآن بترديده حرف العين يوجّه السامع إلى ضرورة انطلاق الدعاء من أعماق القلب كي ننال الإجابة، إلى جانب ما تحويه العين من جمال ولذّة في السمع تستدعي إنصات القارئ[108].

وهذا كلّه معين للحجة القرآنية في جذب سامعها سواء أكان مؤمنًا أم كافرًا، وهذا التوظيف الصوتي في بناء الحجة داخل النفوس لم يدّخر وسعًا في استخدام أي شكل من أشكال الصوت حتى في صورة الحرف المنطوق نفسه كما رأينا.

---

[106]– جماليات الإشارة النفسية: 285.

[107] – جماليات الإشارة النفسية: ص 292.

[108] – جماليات الإشارة النفسية: 295– 296.

وزيادة على ذلك سأتناول بالتطبيق أيضًا سورة أخرى من القرآن وهي سورة القيامة؛ لأدرس فيها تناسب الأصوات مع المعاني معتمدًا على ما قاله البلاغيون في تناسبهما، وسأحاول أن أضيف جديدًا إن شاء الله.

قال تعالى: "لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ (1) وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ (2) أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ (3) بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ (4) بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ (5) يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ (6) فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ (7) وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ (8) وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ (9) يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ (10) كَلَّا لَا وَزَرَ (11) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ (12) يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (13) بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ (14) وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ (15) لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ (16) إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ (17) فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ (18) ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ (19) كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ (20) وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ (21) وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ (22) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ (23) وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ (24) تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ (25) كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ (26) وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ (27) وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ (28) وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ (29) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ (30) فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ (31) وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (32) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ (33) أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ (34) ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ (35) أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى (36) أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٞ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ (37) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (38) فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ (39) أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ (40).

1- نفي القسم: "لا أقسم بيوم القيامة * ولا أقسم بالنفس اللوامة"، وهي صيغة استعملها القرآن كثيرًا، وفي مواضع مختلفة، واختلف العلماء في المراد منها، فقالوا زائدة للتوكيد، وقالوا للتنبيه والاستفتاح، ولكنّها هنا في سورة القيامة أيًا يكن المراد منها؛ فلا يخفى ما فيها من إيقاع غاضب، وفجأة بالنفي عند البداية تبعث على التوتّر عند السامع المحاجَج وشدّ أعصابه بشكل يجعله يصغي إلى بيان الحجّة، ولا يخفى ما فيها من استهانة بالمشركين الذين لم يؤمنوا بيوم البعث والنشور، وأنهم لا يستحقون أن يقسم الله تعالى لهم، فالقسم فيه إعطاء قيمة للمقسم له واهتمامٌ به، لكنّهم لا يستحقون هذا؛ لصدودهم وإعراضهم، لذلك جاءت الآيات التي تليها باستفهام يحمل التوبيخ "أيحسب الإنسان ألّن نجمع عظامه* بلى قادرين على أن نسوّيَ بنانه".

2- الفاصلة القرآنية: الفاصلة القرآنية -كما سبق عند الرّماني وغيره- تحمل على المعنى المراد وتقود إليه السامع، والقرآن كان دقيقًا في استعمال الفاصلة، والحجاج القرآني عندما استعملها وظّفها عدّة توظيفات، سواء أكانت في حجاجه للمشركين أو في حجاجه للمؤمنين أو حتى في خطابه للنبي صلى الله عليه وسلم، وكله من أنواع الحجاج التي بيّنتها في التمهيد، ونجدها هنا في سورة القيامة تنوّعت بين أربعة أحرف: الهاء والراء والقاف والألف المقصورة.

أمّا فاصلة الهاء، فالهاء حرف يخرج من أقصى الحلق يملأ الصدر بهوائه، وكأنّ صاحبه يفرّج عمّا في نفسه من حسرة وضيق وضعف، بصوت عميق يخرج من جوفه، الهاء هي صوت المتأسف المكسور، المتوجع بلينه وضعفه، فقولنا "آه" عند الألم إنما هو إشارة إلى تعب النفس ووجعها، وكأنّ الآيات تستبق آجل المشركين في الآخرة ومصيرهم، حين يرون بقلوبهم وأعينهم ما أنكروه في الدنيا، فكأنّ حرف الهاء يحاجج غير المؤمنين في حشرجته وكأنه قد جاء ليوقع في القلوب حسرة المشركين يوم يرون البعث والنشور والوجوه الناضرة والباسرة، وبذلك فيشهدون على أنفسهم "بل الإنسان على نفسه بصيرة * ولو ألقى معاذيره".

واستعمل القرآن في نفس السورة فاصلة الهاء أيضًا في الآيات التي تخصّ النبيّ صلى الله عليه وسلّم، في قوله تعالى "لا تحرّك به لسانك لتعجل به * إنّ علينا جمْعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثمّ إنّ علينا بيانه"، جاءت الهاء هنا لتصف حال النبيّ صلى الله عليه وسلّم في خوفه على ضياع القرآن منه أو تفلّته من قلبه، وكأنّ حرصَه صلى الله عليه وسلم على استذكار القرآن وتحريك لسانه بآياته، حرصُ ملهوفٍ يخشى على الأمّة والدين من نسيانه القرآن، والملهوف لا تسكن نفسه، وقد تسمع لهثته وحشرجة صدره، والهاء هي الحرف الذي يملأ صدر الملهوف، بل قد تسمعه منه حين تجده يريد أن يدرك شيئًا يخشى فواته "اه – اه"، لذلك جاءت الآيات لتثبّت قلبه صلى الله عليه وسلم ولتقول له بأنّ القرآن موكول إلى منزله سبحانه في حفظه وبيانه.

أمّا فاصلة الرّاء، فالرّاء حرف يخرج من طرف اللسان مع ما فوقه من الثنايا العليا، وهو ليس بالحرف الشديد الذي يحبس الصوت عند اصطدامه بالحنك الأعلى كما هي حروف الشدّة في "أجد قطٍ بكت"، وليس حرفًا رخوًا يجري معه الهواء لضعف انغلاق المخرج كما هي باقي الحروف باستثناء حروف الشدّة، إنّما هو حرف بينيّ، والحروف البينيّة كما يقول علماء التجويد، هي بين الرخاوة والشدّة فلا

يجري الصوت جريانه في الحروف الرخوة، ولا يحبس انحباسه في الحروف الشديدة، بل يتردد الهواء بين هذا وذاك، والحروف البينية خسمة حروف مجموعة في قولهم "لن عمر".

والفاصلة القرآنية في سورة القيامة استعملت حرف الرّاء في مشاهد حيرة الإنسان يوم تقوم القيامة، وفي دهشته من أهوالها، وكأنه ينظر في كل اتجاه، في حالة من الرعب والارتباك، بين النجاة أو الخسران، فلا يجد مهربًا، لا يجد إلا حساب الله تعالى أمامه، وهو بين عملَيه، بين ما قدّمه في الدنيا من حسن أو سوء، وبين ما أخّره وراءه من آثار عمله خيرًا كان أو شرًا، فهو إذن في حالة من الفزع ومن الحيرة ومن الوقوع بين عملين بين التقديم والتأخير، وهذا شبيه بالراء وهي تحصر بين الشدّة والرخاوة، بين الجريان والانحباس،وهي تتردد بين انغلاق المخرج وانفراجه، وهذا من بلاغة الحجاج القرآني أنه يقود السامع بمنطق الحرف الأخير ليخيفه أو ليرغّبه أو ليصوّر حاله يوم القيامة، قال تعالى "فإذا برق البصر * وخسف القمر * وجمع الشمس والقمر * يقول الإنسان يومئذ أين المفرّ *كلا لا وزر * إلى ربّك يومئذ المستقرّ * ينبؤا الإنسان يومئذ بما قدّم وأخّر".

أمّا فاصلة القاف، فحرف القاف يخرج من أقصى اللسان مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى مما يلي الحلق، والقاف حرف شديد ينحبس الصوت عند النطق به لقوة انغلاق المخرج، والفاصلة القرآنية استعملته في موقف مهيب، ومشهد سيشهده كل إنسان وهو الموت، وساعة الاحتضار، فللموت سكرات، وللموت كربات، والروح حين تنزع يلتمَس لها حيلة أو شاف لشدّة ما يشعر صاحبها من قوّة النزع، والحجاج القرآني إنما استعمل هذه الفاصلة، فاصلة القاف لتجسّد هذه القوّه وهي ترتطم بالحنك الأعلى بشدّة ولتجسّد انحباس الحياة وفقدان مائها وهي الروح؛ كما تحبس القاف لشدّتها فلا يجري معها ريق ولا هواء، وهذا مدعاة لسامع الحجاج أن يخاف ويحذر من هذا اليوم الذي سيأتي، "كلا إذا بلغت التراقيَ * وقيل من راق * وظنّ أنه الفراق * والتفت الساق بالساق * إلى ربك يومئذ المساق".

وأما فاصلة الألف، فالألف حرف مدّ مخرجها من الجوف، فهي هواء خارج من الجوف بتصعّد، وهذا هو الفرق بين حروف المدّ الثلاثة، فالواو حرف مدّ يخرج من الجوف باعتراض، والياء حرف مدّ يخرج من الجوف بتسفّل، والألف حرف مدّ يخرج من الجوف بتصعّد أي نحو الأعلى، واستعملته الفاصلة القرآنية مع الآيات التي تتحدث النشأة الأولى للخلق وعن النشأة الآخرة، وعن صنعة مبدعة لا يدّعيها أحد إلا صاحب التدبير والخلق، فالقدرة التي هي بيد الله تعالى هي بيد القوة العليا سبحانه، وهذه

الحقيقة تخرج من أجواف العباد وتصّعّد إلى الأعلى، إليه سبحانه "أيحسب الإنسان أن يترك سدى * ألم يك نطفة من مني يمنى * ثم كان علقة فخلق فسوى * فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى* أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى".

3- الجرس الإيقاعي للحروف: الجرس الإيقاعي تدركه الأذن الواعية، والقلوب المنصتة، وهو في الحجاج وتوجيه السامع إلى معنى ما إيقاع بليغ يسهم في صناعة الحجّة القرآنية بشكل مؤثّر، فالإيقاع في طوله أو قصره يحمل جوّ المعنى ودلالته، كما تحمله الحروف نفسها، وهذا مبثوث في القرآن، وقد أشرت إليه في الصفحات السابقة من هذا البحث؛ عند الحديث عن التلاؤم الصوتي في القرآن، وضربت له مثالًا من مقطعين في سورة الذاريات، ونجد هنا أيضًا في سورة القيامة أثر هذا الإيقاع على المعنى، فمثلًا في قول الإنسان "بل يريد الإنسان ليفجر أمامه * يسأل أيّان يومُ القيامة"، نجد في القرآن أنه قليلًا ما تستعمل أداة الاستفهام "أيّان" وهي لفظ مديد الجرس خلافًا للهمزة وأين وأكثر أداوت الاستفهام الأخرى، وكأنّ السؤال بأيّان سؤال تهكميّ يوحي باستبعاد الإنسان لوقوع اليوم الآخر، ونكران البعث والنشوروالحساب، وهذا ما يريده الإنسان، لأنه يريد أن ينطلق بالشرّ والفجور بلا حساب وبلا رقيب "بل يريد الإنسان ليفجر أمامه"، وهذا التهكم باستطالة الحياة حرصت على استبعاد موعد الحساب بجرس مديد؛ لم تفوّت الآيات أنْ تردّ عليه بجرس آخر سريع وخاطف، وذلك بمشهد من مشاهد يوم القيامة وهو يخطف البصر ويسلب القمر نوره، وتختل موازين الفلك لتسود حالة من الذعر؛ فيسأل حينها ذاك الإنسان المتهكّم "أين المفرّ" ؟، فيأتيه الجواب بإيقاعه السريع وجرسه القصير "كلا لا وزر * إلى ربك يومئذ المستقر"، ومضيّ الإنسان في الفجور لن يكون ولن ينسى لأنه سيحاسب على كل ما قدّم وأخّر "ينبّؤ الإنسان يومئذٍ بما قدّم وأخّر.

4- استحضار الصورة بالأداء: وهذا ما وظّفه الحجاج القرآني أيضًا بشكل لافت، وكأنّ الحروف تتحرك وترسم المشهد الحقيقي، وكأنّها المشهد بشخوصه حاضر أمامنا، يخرجه اللفظ ويحرّكه كما تحرّك ريشة الفنان الصورة، وهذا ما أكثره في القرآن! وهنا في سورة القيامة صورة مخيفة مهيبة، وكأنها تتحرك أمام العين، صورة الاحتضار الذي فيه تطوى حياة كل إنسان كما طويت الدنيا من قبل في خسف القمر وجمعه مع الشمس، "كلا إذا بلغت التراقي * وقيل من راق * وظن أنه الفراق * والتفت الساق بالساق * إلى ربك يومئذ المساق" توزّعت الصورة وتقسم المشهد على أجزاء متناسقة متناسبة مع مجموعها، فالجزء الأول حال المحتضر من بلوغ الروح للحلقوم وسكرات الموت الظاهرة عليه "كلا إذابلغت التراقي"،

والجزء الثاني حال الناظرين لهذا المحتضر وهم أهله وأحبابه الذين يلتمسون له شافيًا ينقذه من سكرة الموت "وقيل مَن راق" ولعله استفهام يأس وعجز وقلة حيلة، والجزء الثالث حين يوقن المحتضر أنه مفارق للدنيا ولأهله ثم يشتدّ عليه أن يفارقهم ويشتدّ عليه القدوم على الله ومكاره الآخرة، والعرب تكنّي للشديد من الأمر بالساق "وظنّ أنه الفراق * والتفت الساق بالساق"، والجزء الرابع والأخير وهو النهاية التي لا مهرب منها وهي الحضور بين يديه تعالى" إلى ربّك يومئذ المساق"، وينتهي هذا المشهد وكأنّ الصورة بأجزائها الأربعة كاملة في عين سامعها، من حال المحتضر، إلى حال أهل المحتضر، إلى حال الشدّة في المفارقة، إلى النهاية في الآخرة، وكلها بتوزيع صوتيّ متماثل، وحروف متدرّجة في نبراتها وصفاتها من الشدّة إلى الأشدّ، من شدّة الاحتضار في حروف "بلغت – التراقي – راق"، إلى الأشدّ منه وهو تيقّن الموت وقرب القدوم على الله في حروف " ظنّ — الفراق — التفت — الساق– المساق"، وهذا التدرّج داخل جوّ عام يسوده الرهبة والتوتّر والترقّب، بل إنّ السكت عند " منْ" في قوله تعالى "وقيل من راق"، يرسم مشهد التوتر والقلق في البحث عن شاف لهذا المحتضر، وكأنه سكت العاجز الذي لا حيلة بين يديه.

خاتمة:

في ختام هذا البحث نلحظ أهمية مبحث الحجاج في التعامل مع الحجة القرآنية، وأهمية الدراسة البلاغية التي تخدمه وتوضح معناه وبنيانه، وهذه الدراسة استندت في بحثها على كلام البلاغيين القدماء، كما استندت على نقاش كلام الدراسات الحديثة في معنى الحجاج، ثم محاولة الاستفادة من الدراسات القرآنية في توسيع معنى الحجاج بما يتناسب مع الحجة القرآنية.

ويمكن القول إن من أهم النتائج التي توصل لها هذا البحث في مناقشته في هذا البحث:

أولًا:الأسلوب الصوتي للحجاج القرآني أسلوب واسع، له علاقة واضحة بالحجاج ومعناه وفق المعنى القديم والحديث لكلمة الحجاج.

ثانيًا: إن قيمة هذا الأسلوب في التأثير على المخاطب قيمة كبيرة، فهو يعدّ اليوم من بذور الأدلة والتصديقات، التي اعتنى بها القرآن كثيرًا.

ثالثًا: وجد البحث أن التلاؤم الصوتي جزء يقوم عليه الحجاج الصوتي في القرآن الكريم، ومعناه أن حسن التأليف الصوتي بين حروف القرآن وجمله، وهو ما يسبب الجمال التوقيعي فيه، ويسبّب أيضًا الاستهواء الصوتي الذي يستخدمه الحجاج في التأثير بالمتلقي وفي تقريب الحجة من نفسه وعقله.

رابعًا: وجد البحث أن تناسب الأصوات مع المعاني من خلال اختيار اللفظ الأوفق للمعنى واختيار حروف تصوّر المعنى المراد بشكل يجعل من مهمة الحجاج في الإقناع أسهل ويفتح الطريق له في تثبيت المعاني في ذهن المخاطَب.

ولا بدّ من بيان مهم أن الباحث لا يزعم اطّراد كل ما ذكر في القرآن الكريم، ولا يلزم ذلك، إنما هو من تصريف البيان الذي يمكن تتبعه ورصده في صياغة الحجّة القرآنية وحجاجها للمؤمنين والكافرين، وإذا غاب منه شيء في بعض المواضع فإنه يحضر غيره من ألوان التصريف الحجاجيّ، وقد لا تظهر لنا دلالته، ويظهر فقط أثره في النفوس.

أولا المصادر:

- القرآن الكريم على رواية حفص عن عاصم.
- ابن الأثير، ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ت: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، ط1، 1960م
- ابن أبي الأصبع، عبد العظيم بن عبد الواحد، بديع القرآن، ت: أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، الدار العربية للموسوعات.
-الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب، إعجاز القرآن، ت: عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991م.
-البقاعي، برهان الدين أبو الحسن، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسور، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ط1، 1982م .
-الجاحظ، عمروبن بحر، البيان والتبيين، ت: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، ط2.
-الجرجانيّ، عبد القاهر، أسرار البلاغة، ت: هلموت ريتر، مطبعة وزارة المعارف، اسطنبول، ط2، 1979م.
- الجرجانيّ، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ت: محمود شاكر، مطبعة المدني ، مصر، ط3، 1992م.
-الجرجاني، الشريف أبو الحسن علي بن محمد، التعريفات، ت: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000م.
-ابن جني، أبو الفتح عثمان، ت: محمد علي النجار، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ط4، 1999م.

-الخطّابيّ، أبو سليمان حمد بن محمد، بيان في إعجاز القرآن، ت: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دارالمعارف، منشورة ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ط6،؟.

-الخفاجي، أبو محمد ابن سنان، سرّ الفصاحة، ت: داود الشوابكة، دار الفكر، عمان، ط1، 2006م.

-ابن رشيق، أبو عليّ الحسن القيرواني، العمدة، ت: محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ط1، 1934م.

-الرّماني، أبو الحسن، النكت في إعجاز القرآن، منشورة ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ت: محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، ط6، ؟ .

-الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ط2،؟.

-الزمخشري، جار الله أبو القاسم، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل، ت عادل عبد الموجود وعليّ معوض، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 1998م.

-السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن محمد، مفتاح العلوم، ت: عبد الحميد الهنداوي، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 2000م.

-السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، الإتقان في علوم القرآن، ت: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، دمشق، ط1، 1987م.

-الطبريّ، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ت: محمود شاكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 2001م.

-العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله، كتاب الصناعتين، ت: علي البيجاوي ومحمد الفضل أبو إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي، ط1، 1952م.

-القرطاجني، أبو الحسن حازم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ت: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس.

-القزويني، الخطيب محمد عبد الرحمن، الإيضاح في علوم البلاغة، ت:عبد المنعم الخفاجي، دار الكتاب المصريّ، القاهرة.

ثانيًا المراجع:

-إبراهيم سلامة، بلاغة أرسطو بين العرب واليونان، مكتبة الأنجلو المصرية، ط2، 1952م.

-أحمد مطلوب، فنون بلاغية، دار البحوث العلمية، الكويت، ط1، 1975م.

- ألان ليوري، سيكولوجيا التربية والتكوين، ت: وجيه أسعد، المركز العربي للتعريب والترجمة، دمشق، ؟، 2000م.

-أوليفي روبول، هل يمكن أن يوجد حجاج غير بلاغي؟، ت: محمد العمري، مجلة علامات، المغرب، ج22،6 شعبان1417هـ، ديسمبر 1996م.

-التهامي نقرة، سيكولوجية القصة في القرآن الكريم، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1974م.

-جوزيف فندريس، اللغة، ت: عبد الحميد الدواخلي ومحمد قصاص، لجنة البيان العربي، القاهرة، 1950م.

-رولان بارت، مبادئ في علم الأدلة، ت: محمد البكري، دار الحوار، سورية، ط2، 1987م.

-رولان بارت، لذّة النصّ، ت: منذر عياشي، دار نينوى، دمشق، 2014م.
-رولان بارت، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، ت: عمر أوكان، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة،
-سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط20، 2010م.
-سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، ط9، 1980م.
- صالح ملا عزيز، جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني، دار الزمان، دمشق، ط1، 2010م.
-صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1965م.
-طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 2012م.
-طه عبد الرحمن، روح الدين من ضيق العلمانية إلى سعة الائتمانية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2012م.
-عادل مصطفى، فهم الفهم مدخل إلى الهرمنيوطيقا، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ؟، 2007م.
-عبد العزيز حمودة، الخروج من التيه، المطابع السياسية، الكويت، 2003م.
-عبد الله صولة، الحجاج في القرآن، جامعة منوبة، تونس، 2001م.
-عبد النبي اطصيف، النصّ الأدبيّ والمتلقيّ، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ع 309، شباط،1997م.
-عفت الشرقاوي، بلاغة العطف في القرآن الكريم دراسة أسلوبية، دار النهضة العربية، بيروت، ، 1981م.
- فاضل السامرائي، التعبير القرآني، دار عمّار، عمّان، ط1، 1998م.
-ليونيل بلينجر، الآليات الحجاجية للتواصل، ت:عبد الرفيق بوركي، مجلة علامات، المغرب، عدد 21، 2004م .
-مجيد عبد الحميد ناجي، الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1984م.
-محمد محمد أبو موسى، مراجعات في أصول الدرس البلاغي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط2، 2008م.
-محمد محمد أبو موسى، مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط2، 2010م.